

القول المفيد

في

شرح قاعدة التوحيد

تأليف

وليد بن راشد السعيدان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له ما في السموات والأرض وما بينهما وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير، الحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، والحمد لله الذي من علينا بأن جعلنا مسلمين ومن أهل السنة ، وعلمنا الكتاب والحكمة ، وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس ، والحمد لله الذي عصمنا من مضلات الفتن التي افتتن بها كثير من الناس ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده ، فما ترك خيرا إلا ودل الأمة عليه ولا شرا إلا حذر الأمة منه ، فلا خير إلا في اتباعه ، ولا فلاح إلا في سلوك سبيله ، ولا جنة إلا من طريقه ، ولا دين إلا ما شرعه ، ثم أما بعد :-

فإن التوحيد هو أساس العمل وقاعدته وأصله وشرط قبوله ، وهو أول دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو مفتاح الجنة ، وشرط النجاة في الآخرة ، فالواجب على العاقل أن يقبل على معرفة مسأله وتحقيقها ، وإن من أعظم مسأله ، وأكبر قواعده ، وأهم فصوله ، أن لا يعبد إلا الله تعالى ، وأن كل تعبد صرف لغيره جل وعلا فهو تعبد باطل لاغ وشرك وبغي وظلم وفجور ، وأنني - والله الحمد والمنة - لا زلت أعيد في بيان مسأله وأزيد ، وأنوع الطرح فيها ، ما بين نظم ونثر وتأصيل وسؤال وجواب ، وهذه الكتابة التي نحن بصدد كتابتها تأصيلية مهمة جدا ، وهي عبارة عن شرح أكبر قواعد التوحيد على الإطلاق ، والتي هي لب

التوحيد وأساسه ، والتي تجمع غالب مسائله وتفصيله ، ويحصل للمسلم بتحقيقها كمال الأمن والاطمئنان على توحيده ، فلا بد من طرقها بالطريقة المحببة للنفوس ، ولا بد من فهمها الفهم الكامل بأدلتها ، فإنه لا سعادة للمرء ولا فلاح ولا نجاة إلا بذلك ، في هذه القاعدة خاصة ، ونص هذه القاعدة يقول (التبعد حق محض صرف لله تعالى لا يصرف لملك مقرب ولا لنبى مرسل ولا لولي صالح ، وكل تعبد صرف لغيره فباطل وشرك) وسوف نطرقها بكل أدلتها وتفصيلها ، إن شاء الله تعالى ، فالله أسأل أن ينفع بها ويبارك فيها ، وأن يجعلها نبراسا ينير الطريق لمن أراد معرفة الحق في هذه المسألة الخطيرة الكبيرة ، وأن يشرح لها الصدور ، ويفتح فيها الأفهام ، ويجعلها عملا صالحا متقبلا مروراً ، وأشهد الله تعالى أنهما وقف لله تعالى لا أريد بها عزر ولا جاهاً ولا مالا ، ولا أي شيء من حطام الدنيا ، ولا حق لوالد ولا لولد ولا لقريب ولا لبعيد أن يحتفظ بحقوق طبعها ، بل هي من العلم المبذول لكل مسلم على وجه هذه الأرض ، فيارب اغفر لأهل العلم وارحمهم ، وارفع يارب درجاتهم في جنة الفردوس الأعلى ، واجزههم خير الجزاء ، يارب أسألك باسمك الأعظم أن تحشرهم في زمرة النبي صلى الله عليه وسلم ، اللهم إني أشهدك على حبهم ، وحب من يحبهم ، فاحشربي اللهم في زمرةم ، وإن كنت لا أساوي في الإسلام ولا غبار أقدامهم ، والله المستعان على هذه النفس الأمارة بالسوء ، اللهم أعني عليها ، واكفني شرها يا أرحم الراحمين ، وأسئمت هذه الوريقات (القول المفيد في شرح قاعدة التوحيد) وستكون الكتابة فيها على الطريقة المعهودة ، من شرح القاعدة أفراداً ،

وإجمالاً ، وتديلاً ، وتفريعاً ، وسأحاول الاختصار ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، فيإلى المقصود والله وحده المستعان وعليه وحده التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

* يقول العبد الفقير الذليل لربه العلي القدير :- نبدأ أولاً بنص القاعدة وهو كما يلي :-

(العبادة حق محض صرف لله تعالى لا تصرف لملك مقرب ولا لني مرسل ولا لولي صالح وكل تعبد صرف لغير الله تعالى فباطل)

أقول :- قوله (العبادة) هي لغة التذلل والخضوع ، وشرعاً :- عرفها أبو العباس بن تيمية بقوله :- اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والخرفية قوله (حق) أي هي ملك له ، لا شريك له فيها ، فهي خاصة به جل وعلا ، لا شائبة فيها لأحد من المخلوقين أي كانت مرتبته وأيا كان جنسه ، قوله (محض) أي خالص ، قوله (صرف) تأكيد لقوله :- محض خالص ، قوله (لا تصرف) أي لا ينوى بها ولا يقصد بها ، قوله (لملك) الملائكة عالم غيبي مخلوقون من نور للقيام بأمر مخصوصة ، قوله (ولا لني مرسل) النبي هو إنسان ذكر حي بعث مجدداً لشرية من قبله ، والغالب أنه يبعث لأناس موافقين ، والرسول من أوحى إليه بشرع جديد وأمر بتبليغه ، والغالب أنه يبعث لأناس مخالفين ، فكل رسول نبي ولا عكس ، وعليه ، فآدم عليه السلام أول نبي باعتبار أنه بعث لأناس موافقين ، ونوح أول رسول باعتبار أنه

بعث لأناس مخالفين ، فالعبادة لا حق للأنبياء ولا للرسل فيها ، ولا شركة لهم مع الله تعالى في شيء منها ، قوله (ولا لولي صالح) الولي هو من المؤمن المتقي ، فأولياء الله تعالى هم المؤمنون المتقون ، كما قال تعالى " إلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون " وتختلف درجات أهل الإيمان في الولاية بحسب اختلاف تراقيهم في درجات الإيمان والتقوى ، فأولياء الله الصالحون لا حق لهم في شيء من أمور التعبد ، ولا شركة لهم فيه ، قوله (وكل تعبد صرف لغير الله تعالى فباطل وشرك) هذا واضح لا يحتاج إلى شرح أفراده .

فصل

إذا علم هذا فاعلم - رعاك الله تعالى - أن الله تعالى قد خلق الخلق لحكمة عظيمة ، وغاية نبيلة ، ومهمة جسيمة ، وهي عبادته جل وعلا وحده لا شريك له ، فالله تعالى لم يخلق الخلق ليستكثر بهم من قلة ، ولا ليستعز بهم من ذلة ، ولا ليتقوى بهم من ضعف ، وإنما خلقهم لهذه الغاية الكبيرة ، كما قال تعالى " وما خلقت الجن والإنس ألا ليعبدون " وقد سخر الله تعالى لهم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه ليتقوا بذلك التسخير على تحقيق هذا المقصد العظيم ، ولأن العقول ليس لها القدرة في معرفة تفاصيل أمور هذه العبادة ، أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الكتب لتعرف الثقيلين ما يجب عليهم أن يتعبدوا لله به وما يجوز لهم وما يحرم عليهم ، وإن أول ما خاطب الرسل به أممهم هو أنهم قالوا لهم " أعبدوا

الله ما لكم من إله غيره " فقد قالها نوح لقومه ، وقالها هود لقومه ، وقالها صالح لقومه ، وكل الرسل قالوها لأقوامهم ، فالتوحيد أول دعوة المرسلين ، وزيدة رسالتهم ، وأول أمر صدر منهم لمن بعثوا إليهم ، فالتوحيد أول واجب وآخر واجب ، وأعظم ما أمر الله به ، وهو حق الله على عباده ، وقد وردت آيات القرآن وأحاديث السنة آمرة به ، فقال تعالى " واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً " فقوله (ولا تشركوا به شيئاً) نكرة في سياق النفي فتعم ، فيدخل فيها النهي عن إشراك كل أحد كائناً من كان ، فهذا أمر بعبادته وحده لا شريك له ، ونهي عن صرف العبادة لغيره جل وعلا ، وقال تعالى " ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت " وقال تعالى " وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون " فهذا إخبار عن وظيفة الرسل جميعاً ، وهي أمر الأمم بالتوحيد والنهي عن عبادة ما سواه جل وعلا ، وقال تعالى " واذكر أحبا عاد إذا أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت الرسل من بين ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم " فالرسل كلهم جاءوا لتقرير هذا لأصل العظيم ، فأعظم مسألة في الدين وأخطر مسألة وأفخم مسألة هي وجوب توحيد جل وعلا والنهي عن صرف شيء من العبادة لغيره ، فمن فهم هذا الأصل الكبير وعمل بمقتضاه فقد فاز وأفلح ، فلا يعبد إلا الله تعالى ، فعبادته جل وعلا حق وتوحيد ، وعبادة غيره باطل وتنديد ، وقال تعالى " فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم " وقال تعالى " ألم أعهد إليكم بيني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو

ميين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم " فمن صرف شيئا من العبادة لغير الله تعالى فهو في حقيقته إنما يعبد الشيطان ، وقال تعالى " قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين " فهذه السورة كلها في تقرير وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة والنهي عن عبادة ما سواه ، وقال تعالى " قل إني نهييت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين " فعبادة غيره منهي عنها النهي الأكيد القاطع، وقال تعالى " قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين " وهذه الآية هي عين القاعدة ، وقال تعالى " قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ " فهذا أمر من الله تعالى بأن يعبد وحده لا شريك له وأن لا يشرك معه في عبادته أحد ، وهو عين ما نريد تقريره في هذه القاعدة ، فالعبادة حق الله المحض الصرف الذي لا حق لأحد معه فيها ، بل هي حقه الخالص ، وهذا مما حكم الله به كما قال تعالى " إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون " ولقد قضى بذلك جل وعلا فقال تعالى " وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه " وقال تعالى " اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون " وقال تعالى " قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ، ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من

الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين " وقال تعالى " يا عبادي الذين ءآمَنوا إن أَرْضِي واسعة فإياي فاعبدون " والآيات في هذا المعنى كثيرة جدا ، بل إن توحيد الله بالعبادة والنهي عن عبادة ما سواه من أعظم مقاصد القرآن التي جاء بتقريرها أكمل التقرير ، وأما السنة فهي طافحة بالأمر بالتوحيد ولنهي عن الشرك ، ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال :- قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال " أن تجعل لله ندا وهو خلقك " قلت :- ثم أي ؟ قال :- " أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك " قلت :- ثم أي ؟ قال :- " أن تزاني حليلة جارك " فأنزل الله عز وجل تصديقها " والذين لا يدعون مع الله إلها آ خر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون الآية " فأعظم الذنوب على الإطلاق هو الشرك ، وهو صرف العبادة لغير الله تعالى ، وعن محمود بن لبيد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا " رواه أحمد ، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال :- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :- " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله " وقال صلى الله عليه وسلم " من شهد أن لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه إلا بحقه " وعن ربيعة بن عباد الديلي رضي الله عنه قال :- رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف على الناي بمنى بمنزلهم قبل أن يهاجر إلى

المدينة يقول " يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً " ووراءه رجل يقوا :- يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تدعوا ما كان يعبد آباؤكم ، فسألت من الرجل ؟ فقيل :- أبو لهب . رواه أحمد والحاكم وصححه . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :- أتى أعرابي النبي صلى الله عليه وسلم فقال :- دلي على عمل إذا عملته دخلت الجنة ؟ فقال " تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان " قال :- والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا ولا أنقص منه ، فلما ولى قال النبي صلى الله عليه وسلم :- " من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا " وهو في الصحيحين ، وفيهما أيضاً من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنهما قال :- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله عصابة من أصحابه :- " بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف ... الحديث " وعنه رضي الله عنه قال :- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :- " من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل " وعن جابر رضي الله عنه قال :- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :- " ننتان موجبتان " قال رجل :- يا رسول الله :- ما الموجبتان ؟ فقال :- " من ما يشرك بالله شيئاً دخل النار ، ومن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة " والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ، وبهذا تعلم أن العبادة حق الله

تعالى لا شريك لأحد معه فيها ، بل هي حقه الخالص الصرف المحض ،
وأن عبادة غيره ظلم وعدوان وشرك . والله يتولانا وإياك .

فصل

إذا علمت هذا فاعلم أن الله تعالى قد استدل على وحدانيته في العبادة بأدلة كثيرة جدا وهي التي يسميها العلماء (براهين التوحيد) وأرى أنه من المهم ذكر بعضها هنا حتى يتبين للناس أحقية الله تعالى بتوحيد بالعبادة، وأنه هو الإله الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، فأقول وبالله التوفيق ومنه أستمد العون والفضل وحسن التحقيق:

فمن هذه البراهين: الاستدلال على توحيده في عبادته بتوحيده في ربوبيته وهذا كثير في القرآن جدا، فإن المستحق لأن يعبد وحده هو الخالق الرازق المحيي المميت المدير المالك المهيمن، وهذا هو الله تعالى، فإنه المالك لكل شيء والخالق لكل شيء والمتصرف المدير لكل شيء، فكما أنه رب كل شيء فهو إله كل شيء، وقد تقرر أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، ولذلك قال الله تعالى " يا أيها اعبدوا ربكم " وهذا أمر بتوحيد الألوهية ثم ساق الاستدلال على أحقيته في ألوهيته بقوله " الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم " وهذا كله من توحيد الربوبية ، ثم أخبر عن نتيجة الإيمان بذلك بقوله " فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون " وقال تعالى " قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم

تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأني تسحرون بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون ، ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق وعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون " فقررهم أولاً بإيمانهم بتوحيد الربوبية ثم انتقل معهم بأن إيمانهم بذلك يوجب عليهم أن يفردوه بالعبادة ، وعليه فمن آمن بأن الله تعالى هو الرب الخالق المالك المتصرف ثم صرف العبادة لغيره فقد وقع في أعظم وأقبح التناقض ، ولذلك قال الله تعالى " وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون " قال جمع من السلف : يؤمنون بأن الله هو الخالق الرازق المالك ويعبدون معه غيره ، وقال تعالى " فمن لا يخلق لا يستحق أن يعبد كما قال تعالى " قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ... الآية " وقال تعالى " أيعبدون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون " ومن لا يملك شيئاً فلا يستحق أن يعبد كما قال تعالى " ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير " وقال تعالى " قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير " وقال تعالى " وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم " وهذا خبر يتضمن الأمر بتوحيد الألوهية، ثم ساق ذكر الآية بعدها على وجه الاستدلال على ذلك فقال " إن في خلق السموات والأرض واختلاف

الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها
وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء
والأرض لآيات لقوم يعقلون " فلأن الله تعالى هو رب كل شيء فهو
إله كل شيء ، وأما من دونه جل وعلا فإنه لا يصلح أن يكون ربا ،
وعليه فلا يصلح أن يكون إلهها ولا معبودا من دون الله عز وجل ، فالكل
معترف ولو باطنا بأن الله تعالى وحده هو الخالق وحده ولا خالق إلا هو
، وهو المالك لكل شيء وحده ولا مالك على الحقيقة إلا هو، وهو
المدير وحده ولا مدير على الحقيقة إلا هو ، فحيث كان كذلك فنقول :
إنه المستحق للعبادة وحده ولا يستحق أحد العبادة في هذا الكون إلا هو
، فهذا هو الحق الذي لا أحق منه ، وهو العدل والصدق الذي لا أعدل
ولا أصدق منه ، وأقسم بالله تعالى أنه لا يستحق أحد العبادة إلا هو
وحده لا شريك له ، فهذا برهان عظيم ، لا بد من تدبره والنظر إليه بعين
الاعتبار ، وإن النظر الصحيح فيه كفيل بدلالة العقول والقلوب على الله
تعالى .

ومن البراهين أيضا: الاستدلال عليه بتصريح الله تعالى به في كتابه في
مواضع كثيرة ، كقوله تعالى " شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا
العلم قائما بالتسبط لا إله إلا هو العزيز الحكيم " وكقوله تعالى " ذلك
بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي
الكبير " أي أن عبادته جل وعلا هي الحق ، وأما عبادة غيره فإنها أبطل
الباطل ، وقال تعالى " وهو الله في السموات والأرض " وقال " وهو الذي
في السماء إله وفي الأرض إله " أي أنه لا إله لأهل السموات ولا لأهل

الأرض إلا إله واحد هو المعبود فيهما وهو الله تعالى وحده لا شريك له ، وهذا كثير جدا في القرآن .

ومن البراهين أيضا: الاستدلال عليه ببطلان ألوهية غيره ، فإنه جل وعلا مع إثبات الإلهية له وحده فإنه يبطل إلهية غيره بالأوجه القاطعة التي لو تدبرها العاقل لعلم بأن كل ما عبد من دون الله تعالى فإنما عبد بالظلم والبغي والعناد والطغيان والباطل ، وهذه الأوجه كثيرة جدا وسأفرد لها فصلا خاصا هو الآتي بعد هذا الفصل إن شاء الله تعالى ، لأننا في هذا الفصل نثبت أحقية الله تعالى بالعبادة ، وفي الذي بعده سنثبت بطلان عبادة ما سواه ، حتى يترتب الكلام في ذهنك .

ومن البراهين أيضا: الاستدلال عليه بأنه هو وحده القادر على الخلق، فاستدل على وحدانيته في عبادته على توحده بالقدرة على الخلق ، فالذي يقدر على خلق الخلق ، وإبرازهم من العدم إلى الوجود هو الذي يستحق أن يعبد وحده ، لأن من لا يقدر على فهو عاجز ، والعاجز لا يصلح أن يكون ألها ولا معبودا ، ولذلك قال الله تعالى مبينا هذا الأمر " أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار " أي وخالق كل شيء هو المستحق لأن يعبد وحده ، وقال تعالى " يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون " وقال تعالى " يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض " والجواب :— لا ، والنتيجة هي قوله " لا إله إلا هو فأنى تؤفكون " وقال تعالى منكرا على من يعبد ما لا يخلق شيئا فقال تعالى " أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون " وقال تعالى "

هذا خلق الله فأروني ما ذا خلق الذين من دونه " وقال تعالى " قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ما ذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ... الآية " فالملائكة لا تستطيع خلق شيء، والأنبياء لا يستطيعون خلق شيء، والأولياء والصالحون لا يستطيعون خلق شيء، فإذا لا يصلح أحد منهم أن يكون إلها ولا معبودا من دون الله تعالى.

ومن البراهين أيضا : الاستدلال على ألوهيته بأنه وحده النافع الضار ، وهما من أسماء الله تعالى المزدوجة المقترنة التي لا يفرد أحدهما عن الآخر وهي تدل على كمال الله سبحانه وحكمته البالغة حيث ينفع من أطاعه بفعل الخيرات في الدنيا والإعانة عليها ، وتكون سببا لدخول الجنة ، والضار لمن عصاه وابتعد عن هداه ، ومآله إلى النار وبئس القرار ، وقد استدلل الله تعالى في كتابه الكريم على ألوهيته بأنه وحده الذي بيده النفع والضر ، فقال تعالى " وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم " وقال تعالى " قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادي الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادي برحمة هل هن ممسكات رحمته ، قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون " فالقادر على النفع والضر هو المستحق أن يعبد ، ولذلك أبطل الله تعالى عبادة الأصنام من الأشجار والأحجار وغيرها فأنها لا تنفع ولا تضر ولا تغني عابدها شيئا لا في إيصال المحبوب ولا في تفريج الكروب ولا في جلب الخيرات ولا دفع المضرات ، فقال الله تعالى " واتخذ قوم موسى من بعد من حلهم جسدا له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين

" وفي آية أخرى قال عن هذا العجل " أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا " وقال تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لأبيه مستدلا على بطلان عبادته للحجر " يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا " وقال الله تعالى عنه أيضا أنه قال لقومه " قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون " والآيات في هذا المعنى كثيرة .

ومن البراهين أيضا : الاستدلال على ألوهيته بأنه القادر على كل شيء وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن السموات والأرض قبضته يوم القيامة، وأن أمره إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون ، وأنه القاهر فوق عباده ، وأن المخلوقات بأسرها عاجزة عن شيء من ذلك والعاجز لا يصلح أن يكون ربا ولا معبودا ، قال تعالى " وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون " فأين هذا ممن يعبد قبرا أو شجرا أو حجرا أو صنما أو ميتا ؟ إنه تناقض العقل البشري وفساد الفهم وتلبس الشيطان، فالعاجز الضعيف لا يصلح أن يكون إلهًا، بل الإله هو القوي القوة المطلقة والقادر القدرة المطلقة، وذلك هو الله تعالى.

ومن هذه البراهين : الاستدلال على ذلك بأنه المالك لكل شيء والذي لا يشذ عن ملكه شيء ، قال تعالى " تبارك الذي بيده الملك " وقال تعالى " وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا " وقال تعالى " ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير " وقال تعالى " قل اللهم

مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتترع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير " وقال تعالى " والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء " ولذلك فإن من جملة ما أنكره الله على من يعبد غيره بأنه لا يملك مثقال ذرة ، فقال تعالى " أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرثقوا في الأسباب " وقال تعالى " قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير " ولما كانت النفوس مجبولة على الاغترار بصاحب الملك جعل فرعون ملكه الذي آتاه الله تعالى طريقا ليغر الناس بأنه هو الإله ، فقال الله عنه " قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين " فلأن الله تعالى هو مالك الملك وحده فهو المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له ، فالله تعالى له الملك المطلق من كل وجه ، فلا يخرج شيء عن أن يكون مملوكا لله تعالى ، فإن قيل : أوليس المخلوق يملك ؟ فأقول نعم ، ولكن بين ملك الله تعالى وملك المخلوق من الفرق كما بين السماء والأرض ، وبيان ذلك من وجوه :

منها : أن ملك الله تعالى ملك لا أول له فهو المالك لكل شيء في الأزل ، وأما ملك المخلوق فهو ملك حادث بعد أن لم يكن ، فأنت تملك اليوم ما لم تكن تملكه بالأمس ، وتملك غدا ما لم تكن تملكه اليوم ، وهكذا ، وهذا واضح .

ومنها : أن ملك الله تعالى أبدي لا نهاية له ، فلا ينقطع ملكه للأشياء جل وعلا ، وأما ملك المخلوق فإنه ملك زائل ، إما بالبيع أو بالهبة أو بالصدقة أو بالموت ونحو ذلك .

ومنها : أن ملك الله تعالى عام شامل لكل الأشياء ، فالله تعالى له الملك المطلق وأما ملك المخلوق فإنه ملك محصور محدود وهذا معلوم فأنت لا تملك ما يملكه الآخرون فالمخلوق له مطلق الملك ، أي بعضه فقط ، وأما الله تعالى فله الملك المطلق ، أي كل ما يملك فهو داخل تحت ملكه جل وعلا ، وهنا لطيفة : وهي أن الملك - بضم الميم - أبلغ من الملك - بكسرهما - وذلك أن الملك - بالضم - معناه ملك الأشياء وملك مالكيها ، فالله تعالى مالك للشيء ومالك لمن يملك هذا الشيء ، فالمملوك ومالكة كلهم يدخلون تحت ملكيته جل وعلا ، وأما الملك - بالكسر - فهو ملك للشيء فقط .

ومنها : أن الخالق جل وعلا له أن يتصرف في ملكه كما يشاء جل وعلا ، فله جل وعلا التصرف المطلق ، وأما المخلوق فليس له حرية التصرف في ملكه ، بل لا يجوز له أن يتصرف في ملكه إلا في حدود ما أقره الشرع فقط . والمقصود أن تعرف معرفة اليقين أن المالك لكل شيء هو الله تعالى ، وأن الملك لكل شيء هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وعليه فالله هو وحده المستحق للعبادة لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكوته .

ومن براهين التوحيد أيضا : الاستدلال على وحدانيته في عبادته بوحدانيته في أسمائه الحسنی وصفاته العليا ، فإنه جل وعلا له أسماء كاملة

في حسنها الكمال المطلق ، وصفات لها الجمال والجلال المطلق ، قال تعالى " والله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون " وقال تعالى " وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم " وعليه فالذي لا يوصف بصفات الكمال فإنه لا يستحق أن يكون ربا ولا معبودا من دون الله تعالى ولذلك استدل الله تعالى على بطلان إلهية ما يعبد من دونه من الأصنام والأحجار بسلب صفات الكمال عنها ، فقال عن خليله إبراهيم أنه قال لأبيه " يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا " فاستدل على بطلان عبادتها بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عابدها شيئا ، وهذا واضح في بطلان عبادتها ، فهم يمسون عندها ويصبحون ويتزلفون لها بكل القرب رجاء أن تنفعهم وهي في ذاتها لا تسمعهم ولا تبصرهم ولا تدري ماذا يقولون أصلا ، وأما الله تعالى فإنه السميع الكامل ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في الماء ، وله البصر الكامل فلا يخفى على بصره شيء ، فيسمع دعاء الداعين ، ويجيب دعوة المضطرين ، ويغيث لهفة المتوجعين ، فأين هذا من هذا ، ولكنه العقل البشري إذ اضل عن طريق الهدى ، وتقحم في عماية الجهل ، وكذلك استدل الله تعالى بكمال القدرة على أنه المعبود وحده لا شريك له ، وسلب إلهية ما يعبد من دونه بأنه عاجز ضعيف لا يقدر على شيء ، كما سيأتي ذلك في الفصل القادم ، وكذلك استدل على وحدانيته في العبادة بوحدانيته في الخلق ، وهو استدلال بصفات الكمال ، واستدل على ذلك بأنه مالك الملك ، وأنه الفعال لما يريد ، وأنه قدر كل شيء خلقه تقديرا ، وأنه النافع الضار ،

وأنه القابض الباسط ، وأنه المعطي والمانع ، وأنه العلي الأعلى ، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء ، والآخر الذي ليس بعده شيء ، والظاهر الذي ليس فوقه شيء ، والباطن الذي ليس دونه شيء ، وأنه الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له " كن فيكون " وأنه المهيمن فوق عباده ، وأنه يرزق من يشاء بغير حساب ، وأن أزمة الأمور بيده ، فيغني ويفقر ، ويعز ويذل ، ويعطي ويمنع ، ويحي ويميت ، وأنه يتزل الغيث وينشر رحمته وأنه الولي الحميد ، وأنه يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وأنه الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وغير ذلك كثير جدا في القرآن ، مما لا يكاد يحصر إلا بكلفة ، فالله تعالى يستدل على أنه الواحد في ألوهيته بأنه الواحد في أسمائه وصفاته ، وأن له صفات الكمال ونعوت الجلال والجمال والعظمة ، وأن له الأسماء الحسنى التي لا يستحقها إلا هو جل وعلا ، قال تعالى " هل تعلم له سميا " فإن من تدبر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا علم علما يقينياً قطعياً أنه هو وحده المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له ، وأن ما عبد من دونه إنما عبد بالظلم والبغي والتعدي ، ولذلك فأعظم الظلم هو الشرك كما قال تعالى " إن الشرك لظلم عظيم " وأعدل العدل وأحق الحق هو توحيده في العبادة جل وعلا ، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ومن براهين التوحيد أيضاً : الاستدلال عليه بأنه جل وعلا له الحكم وحده ، الحكم الشرعي والحكم الكوني القدري ، فلا حاكم شرعاً وكوناً إلا الله تعالى ، فالذي له الحكم وحده هو المستحق لأن يعبد وحده ، وأما من لا حكم له فإنه لا يستحق شيئاً من العبادة ، دع عنك الذين

يحكمون القوانين الوضعية التي هي من البشر ، فإنها أحكام لا تسمن ولا تغني من جوع ، لأنها من وضع البشر الذين لا يعلمون ما يصلح الناس ، ولذلك ففيها الظلم والبغي والعدوان والإفك والجور ، وفيها ما يتنافى مع الفطرة ، ولا يصلح لأن يحكم به بين البهائم في علفها ، فضلا عن أن يتحاكم بها البشر فيما بينهم ، بل ما دخل الفساد على العالم إلا لما اعتمدت هذه القوانين ونسفت شريعة الله تعالى ، فلا يزال الناس في سفول منذ حكمت بينهم هذه القوانين وأبعد عنهم التحاكم بشرع الله تعالى ، لأنه لا صلاح لهذا العالم ولا نجاة له من بلاياه التي يعيشها إلا بالرجوع إلى حكم الشريعة ، لأنه من عند عزيز حكيم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تزييل من حميد مجيد ، ولذلك قال تعالى " إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون " فأحكام الله تعالى صادرة من عند الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ، فلا ظلم فيها ولا مفسدة ، بل هي عدل كلها ونور كلها وصلاح كلها ، فكيف يعبد الأموات وهم لا حكم لهم لا شرعا ولا قدرا ، وكيف تعبد الملائكة وهي لا حكم لها شرعا ولا قدرا ، وكيف يعبد الأنبياء وهم إنما يبلغون أحكام الله تعالى فلا يأتون بشيء من عند أنفسهم ، وإنما هو وحي يوحى إليهم ، وكيف يعبد الأولياء والصالحون وهم لا حكم لهم شرعا ولا قدرا ، ذلك لأن المعبود هو من يحكم في غيره ولا يحكم غيره فيه ، وذلك هو الله تعالى ، وأما الملائكة والأنبياء والأولياء فإنهم مربوبون متعبدون بأحكام قررها لهم ربهم جل وعلا ، فكيف يعبد من لا حكم له وتترك عبادة من له الحكم كله ، " إن الحكم إلا لله "

وقال تعالى " وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب " وقال تعالى " أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون " وهذا من مقتضيات ربوبيته وألوهيته جل وعلا ، فلأن الحكم لله وحده فكذلك لا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له جل ، وذلك قال تعالى " وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون " فانظر كيف استدل على وحدانيته في العبادة بوحدانيته في الحمد والحكم ، وقال تعالى " ولا تدع من الله إلها آخر ، لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون " فقرن وحدانيته في الألوهية بوحدانيته في الحكم ، وقال تعالى " ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا " وكما أنه لا شريك له في حكمه فكذلك لا شريك له في عبادته .

ومن البراهين أيضا :— الاستدلال على توحيده في عبادته بأنه وحده من يتزل الغيث ويحيي الأرض بعد موتها ، فوالله لو يجتمع من بأقطارها على فعل ذلك ما كان لهم عليه من سلطان ، وذلك قال تعالى " أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما فظلمتم تفكهون ، إنا لمغرمون بل نحن محرومون ، أفرايتم الماء الذي تشربون أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المتزلون لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشرون " فاستدل على وحدانيته في العبادة على أنه الذي ينبت الزرع ويتزل الماء من السحاب ، وقال تعالى مستدلا بذلك أيضا وداعيا الإنسان للتفكير والتأمل في ذلك " قتل الإنسان ، ما أكفره ، من أي شيء خلقه " إلى أن قال جل وعلا " فلينظر الإنسان إلى طعامه إنا صببنا الماء صبا ، ثم

شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ،
وحائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم " فساق الله تعالى
ذلك مساق المستدل به على أنه المستحق للعبادة وإفراده بالتوحيد ،
ومساق الإنكار على من كفر وأشرك به من لا يقدر على شيء من ذلك
، فانظر بعين العقل فداحة وعظم ظلم هذا الإنسان ، كيف يأكل من
رزق الله الذي ساق السحاب وأنزل منها الماء وصبه على الأرض وشقق
النواة وأخرج به الزرع والأشجار الوارفة ذات الثمرات المتنوعة ليأكلها
هذا الإنسان وبهائمته ، ثم هو يكفر بربه ويشرك معه غيره في عبادته ،
تالله إنها لأحدى الكبر ، ولذلك قال تعالى " وهو الذي أرسل الرياح
بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء طهورا ، لنحيي به بلدة ميتا
ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا ، ولقد صرفناه بينهم ليعلموا ،
فأبى أكثر الناس إلا كفورا " يعني أنه جل وعلا فعل ذلك ليكون للناس
عبرة وذكرى ودلالة على أنه المستحق للعبادة وحده ، ولكن أبى أكثر
الناس ذلك وأشركوا معه غيره وكفروا بنعمته ، فإنزال المطر وإنبات
الزرع من البراهين الدالة على وجوب توحيدده في العبادة وأنه المستحق
لأن يعبد في هذا لكون وحده لا شريك له ، وفي الصحيحين من حديث
زيد بن خالد قال :— صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس
بوجهه فقال :— " هل تدرون ما ذا قال ربكم ؟ " قالوا :— الله
ورسوله أعلم ، قال :— " قال :— أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر
، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بس كافر بالكوكب

، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب " فسبحان من طمس على بعض القول فلا ترى الشمس في رابعة النهار ، وقد جعل الله تعالى إنزال المطر وإحياء الأرض من جملة الآيات العظيمة الدالة على أنه المستحق للعبادة وحده ، فقال تعالى " والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون " وقال تعالى " إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون " وبهذا يتبين أن إنزال المطر بكمية مقدرة وإحياء الأرض بعد موتها من الدلائل القطعية على أنه جل وعلا هو المعبود وحده في هذا الكون ، وأنه لا إله إلا هو ، وقال تعالى " وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون " والبلية العظمى أن المشركين يؤمنون بأن الله تعالى هو الذي يفعل ذلك وليس أصنامهم ، كما قال تعالى " ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون " ومع ذلك فهم يعبدون معه غيره ، وعليه :— فكما أن الله هو وحده القادر على إجراء السحاب وإنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها فهو وحده المستحق للعبادة لا شريك له جل وعلا .

ومن البراهين أيضا : — الاستدلال على وحدانيته في العبادة بأنه وحده الذي خلق الليل والنهار وجعلهما متعاقبين ، فاختلاف الليل والنهار من الآيات العظيمة الدالة على أنه المعبود وحده لا شريك له ، فإنه لو يجتمع من بأقطارها على تأخير الليل أو النهار لحظة لما استطاعوا ، لأن ذلك لا يقدر عليه إلا الله وحده ، فالذي بيده اختلاف الليل والنهار هو المستحق للعبادة ، وأما العاجز عن ذلك فإنه لا يستحق أن يكون إلهًا ولا معبودًا ، والملائكة والأنبياء والأولياء عاجزون عن ذلك العجز المطلق ، فلا يستحقون شيئًا من أمور العبادة ، ولذلك نبه اللع عباده لذلك فقال " قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله النهار عليكم سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون " وأعظم شكره أن يعبد وحده لا شريك له جل وعلا ، وقال تعالى " ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون " وقال تعالى " وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون " وقال تعالى " يغشي الليل النهار " وقال تعالى " وسخر لكم الليل والنهار " وقال تعالى " إن في اختلاف الليل والنهار ... الآية بتمامها " وقال تعالى " وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا " وقال تعالى " وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه

تفصيلا " وقرن هذه الآية العظيمة بخلق السموات والأرض فقال " إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار " وأخبر أن تقليب الليل والنهار آية لأولي الأبصار فقال تعالى " يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار " فاختلاف الليل والنهار من أعظم النعم التي امتن الله بها على عباده ، فلو كان الليل سرمدا لتعطلت الحياة ، وأصبح الإنسان في خمول وكسل ، وكذلك لنهار لو جعله الله سبحانه مستمرا لكان الناس في تعب وإرهاق ، لكنه العليم الخبير ، فجعلهما يلفان الأرض لا يتأخران عن وقتهما ، فهما آيتان من آيات الله الباهرة التي يراها العباد في اليوم مرتين تنبئ عن وحدانية الخالق وعظمته ، وكمال قدرته ، واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له .

ومن البراهين أيضا : — الاستدلال على وحدانيته في العبادة بإبداعه في الخلق ، فإن الله تعالى خلق الخلق وأبدعه إبداعا حير العقول ، وأخذ بقلوب الخلق — لا سيما العلماء منهم — ولا تزال العقول قاصرة عن إدراك جوانب كثيرة من هذا الإبداع ، فانظر إلى السماء فوقنا كيف بناها الله تعالى ، وما لها من فطور ، ولو قلبت النظر وأعدته لترى فيها من عوج أو شطط أو فروج أو شيء مخل بحسن الخلق لما وجدت لذلك سبيلا ولعاد إليك بصرك خاسئا وهو حسير ، فهي محبوبكة الخلق ، حسنة المنظر ، يسرق العيون جمالها ، وتأخذا لقلوب روعتها ، ومع ثقلها وكبرها وضخامتها فهي مبنية بلا عمد نراها ، فلا شيء تحتها يمسكها ، ومع ذلك فهي ثابتة في مكانها لا تهتز ولا تتغير ولا تسقط على الخلق ، لأن الذي خلقها هو الذي أمسكها بقدرته ، قال تعالى " إن الله يمسك

السموات والأرض أن نزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا " ثم زينها بهذا الكواكب ذات العدد الكثير جدا فلا يحصي عددها إلا هو جل وعلا ، فجعل في كل جنبه من جنبات السماء الدنيا نجوما زاهرة وأفلاك دائرة ، ومجرات ضخمة فيها من النجوم ما لا يحصى عددا ، رجوما للشياطين ، وزينة للسماء ، وعلامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، قال تعالى " أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج " وقال تعالى " والسماء ذات الحبك " ولذلك قال تعالى " إن إلهكم لواحد رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب " وقال تعالى مستدلا على أنه المعبود بحق " الذي أحسن كل شيء خلقه " فإحسان الله تعالى لما خلق وإبداعه فيه من أعظم الآيات الدالة على أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وقال تعالى " بديع السموات والأرض " في موضعين من القرآن الكريم ، وقال تعالى " فتبارك الله أحسن الخالقين " وانظر كيف أنكر الله تعالى على من كفر به مع أنه يعلم أنه الله تعالى هو الذي خلق السماء وأحس خلقها فقال تعالى " قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم " أي كيف تكفرون والحال كذلك ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى

(تأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة ، كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها ، بحيث لا تصعد علوا كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ، ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها ، بل هي ممسوكة بقدره الله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ، ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له ، حتى إن من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة ، وما قرب منها إلى السواد ، فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له) قلت :— وقد ملأها الله تعالى من الأجرام الكبيرة السيارة وجعل لكل كوكب وجرم منها مسارا لا يتجاوزه ولا يتعداه ، فمع كثرتها لا تجد فيها اصطداما ولا تنافرا ، بل بعضها يكمل بعضها في حسنه وعمله ، وكل في فلك يسبحون ، فالقادر على هذا الإبداع العظيم هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، ثم انظر إلى الأرض العظيمة الواسعة وكيف جعلها الله تعالى مهادا وفرشا وذلها تذليلا وجعل فيها سبلا فجاجا ليسهل تنقل الناس على ظهرها ، وليبتغوا من فضله وإليه النشور ، وجعلها كالأم الحنون لمن على ظهرها فجعلها كفاتا للناس والخلق ، أحياء وأمواتا ، كما قال تعالى " ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا " وكيف جعل الله فيها أرزاق العباد وأودع فيها من الخيرات في باطنها وعلى ظهرها ، وكيف مدها وألقى فيها الرواسي العظيمة فجعلها كالوتد لها تحفظها لئلا تميد بمن على ظهرها ، وانظر كيف جعلها كروية

الشكل لتكون نقطة الابتداء هي بعنها نقطة الانتهاء ، وهذا أيسر للتنقل ، وهي مع ذلك أنى جنتها ترى أنك فوق ، وإن كنت في أسفل الكرة ، وانظر كيف أودعها الجاذبية التي بها يسكن من عليها فلا يطرون ، وانظر كيف نوع الله تعالى سطحها ، ففيها الجبل والسهل ، والحزن واللين ، والحصى والتراب والأبيض والأسود ، والماء واليابسة ، والمرتفع والمنخفض ، وانظر كيف جعلها قطعاً متجاورات ، وأخرج من كل قطعة أشجارها وزرعها الذي يسقى بماء واحد ولكن بعضه أفضل من بعض في الأكل ، إنها لمن الآيات الدالة على أن إله الكون واحد لا يستحق العبادة إلا هو جل وعلا ، ولا يزال العلماء ينهلون من معين إعجاز الله تعالى خلقها ، ولقد أكثر الله تعالى من ذكر الأرض في القرآن مستدلاً بها على أنه الواحد الأحد في ألوهيته وكمال قدرته ، ثم انظر إلى الشمس التي فوقنا كيف هي على كبرها وضخامتها تجري لمستقر لها ، وكيف جعلها الله سراجاً ينير هذا العالم ، وجعل لها منازل ومواقيت لطلوعها وغياها ، فلا تعدو ما حد لها ، وهي مع ذلك مسبحة بحمد الله تعالى وساجدة له " وإن من شيء إلا يسبح بحمده " وقال تعالى " ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب " فالكون كله ساجد لله تعالى ومسبح له ، فلا تتقدم الشمس ولا تتأخر عن وقتها المرسوم لها ، ولا يزال علماء الهيئة والفلك يصدرن التقويم على مدار السنين حساباً لجري الشمس وانظر كيف جعل الله تعالى من الفوائد الجمّة الواسعة للنبات والناس وسائر أجزاء الأرض ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى (ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما

وغروبهما إقامة دولتي الليل والنهار ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم ، وكيف كان الناس يسعون في معاشهم ، ويتصرفون في أمورهم ، والدنيا مظلمة عليهم ؟ وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ؟ ثم تأمل الحكمة في غروبها فإنه لولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرر مع فرط الحاجة إلى السبات وجموم الحواس وانبعاث القوى الباطنة وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء، ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس، واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فصارت تطلع وقتا بمتزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم، ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدؤوا....) ثم قال .. (ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول ، وما فيها من المصالح والحكم إذ لو كان الزمان كله فصلا واحدا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه ، فلو كان صيفا كله لفاتت مصالح الشتاء ، ولو كان شتاء كله لفاتت مصالح الصيف ، وكذلك لو كان ربيعا كله أو خريفا كله ، ففي الشتاء تغور الحرارة في الأجواف وبطون الأرض والجبال فتتولد مواد الثمار وغيرها ، وتبرد الظواهر ويستكثف الهواء فيه ، فيحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذي به حياة الأرض وأهلها ، واشتداد أبدان الحيوان وقوتها ، وتزايد القوى الطبيعية واستخلاف ما حلله حرارة الصيف في الأبدان ، وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء ، فيظهر النبات ويتنور الشجر بالزهر ويتحرك الحيوان للتناسل ، وفي الصيف يحتد الهواء ويسخن جدا ، فتنضج الثمار وتنحل

فضلات الأبدان والأحلاط التي انعقدت في الشتاء ، وتغور البرودة وتهرب إلى الأجواف ، ولهذا تبرد العيون والآبار ولا تهضم المعدة الطعام الذي كانت تهضمه في الشتاء من الأطعمة الغليظة ، لأنها كانت تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه ، فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد فانكسر ذلك السموم ، وجعل الله بحكمته برزخا بين سموم الصيف وبرد الشتاء لئلا ينتقل الحيوان وهلة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد فيجد أذاه ويعظم ضرره ، فإذا انتقل إليه بتدرج وترتيب لم يصعب عليه حكمة بالغة وآية باهرة ، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين) اهـ — ثم قال (ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العليم سبحانه فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها لكثير من الجهات لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يجحبها عن الجانب الآخر فكان يكون الليل دائما سرمدا على من لم تطلع عليهم ، والنهار دائما سرمدا على من هي طالعة عليهم ، فيفسد هؤلاء وهؤلاء فاقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربي ثم لا تزال تدور وغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم) اهـ — قلت : — فبالله عليك أوليس هذا الإبداع والإتقان في خلقها من البراهين الدالة على أنه المعبود في هذا الكون وحده لا شريك له ؟ بلى والله العظيم إنه كذلك ، ولذلك دعانا

الله تعالى في آيات كثيرة للنظر في هذه الآيات وما فيها من حكيم الصنع والإبداع والإعجاز كما قال تعالى " ويتفكرون في خلق السموات والأرض " وقال تعالى " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق " وقد ذكر ابن القيم في هذا الباب كلاما بديعا جدا لا تراه عند غيره ، وذلك في كتابه (مفتاح دار السعادة) فأرجو منك — حفظك الله تعالى — أن تراجع كلامه في النظر والتأمل في إبداع هذا الكون بما فيه ، ولولا خوف الإطالة لنقلت كلامه كله ، ولكن حسبي أن أدلك عليه لتراجعه ، فالله الله في مراجعته ، والله وحده المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، والمقصود هنا أن تعلم — بارك الله فيك — أن م البراهين الدالة على تحيده جل وعلا في عبادته إبداع الخلق وإحكامه أيما إحكام ، ويجمع ذلك قوله تعالى " قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون . أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبئتنا به حداثق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إليه مع الله بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا ، إليه مع الله بل أكثرهم لا يعلمون . أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إليه مع الله قليلا ما تذكرون . أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته إليه مع الله تعالى الله عما يشركون ، أمن بيدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض إليه مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين " .

ومن براهين التوحيد أيضا: — الاستدلال عليه بأنه وحده عالم الغيب جل وعلا ، فلا يعلم الغيب ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا من أطلعه الله تعالى على شيء من غيبه ، قال تعالى " عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا " وقال تعالى " قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله " ولذلك أمر الله تعالى بإفراده بالعبادة وعلل ذلك بأنه علم الغيب ، فقال الله تعالى " ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون " فلا ينبغي أن يعبد ولا يخضع إلا لمن له علم الغيب كله ، وذلك لأن الذي لا يعلم الغيب هو في حقيقته جاهل به والجاهل لا يصلح أن يكون ربا ولا إلهًا ، والملائكة والأنبياء والأولياء عاجزون عن نفع أنفسهم ومعرفة مستقبلهم فضلا عن نفع غيرهم ، فهل بالله عليك يا من تعبد بقرة أو حجرا أو مغارة أو قبرا أو شمسا أو قمرا أو ملكا أو وليا أو نبيا أو صنما أو وثنا أو شجرة ، أو غير ذلك هل بالله عليك من تعبده يتحلى بشيء مما سبق ؟ إن الله تعالى قد ركب لنا عقولا وجعل لنا فهما وقلبا لنعقل ونفهم ، فأين أثر هذه العقول وهذه الأفهام ؟ تالله إن الأمر جلي واضح ولكن الله تعالى قضى على بعض العقول والأفهام أن تغلق فلا يستفاد منها فكم من الخلق لهم قلوب لا يعقلون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، وكما قال تعالى " فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور " فالعبادة حق صرف محض لله تعالى ، لا يستحق أحد في هذا الكون أن يصرف له شيء منها مهما

كان جنسه ومهما كان نوعه ومهما كان شكله ، وإنما العبادة لله تعالى فهو المعبود بالحق وأما من دونه فإنما عبد بالباطل والهوى والظلم والبغي والعدوان والتعصب والجهل والخطأ في طريق الاستدلال ، وسيموت الكل وسيبعث الجميع وسيجازى كل على عمله ، فمن آمن واهتدى بهي الكتاب والسنة فله الكرامة والسعادة في جنة عرضها السموات والأرض وأما من تردى وهوى وكفر وعاند وكابر وأشرك فليس له إلا نار تلظى لا يصلها إلا الأثقى ، والله إننا نريد الهداية للجميع ولكن هداية القلوب لا يملكها إلا علام الغيوب جل وعلا ، والله لا نريد لأحد أن يضل ولكن هذا أمر ليس لنا وإنما الأمر كله لله تعالى من قبل ومن بعد ، والله أننا لا نريد أن يدخل النار أحد ، ولكن أنى يكون ذلك وقد قضى ربنا جل وعلا بأن للنار ملاءها ، فالنجاء النجاء أيها الناس بالاعتقاد الصحيح والعمل الصالح والرجيح ، أسأله جل وعلا أن يهدينا ويهدي بنا ويهدي لنا ، وأن يصلح قلوبنا ويوفقنا لما خيري الدنيا والآخرة .

فصل

إذا علمت هذا فاعلم أن إلهية غيره جل وعلا باطلة ، فلا يصح أن يكون غير الله تعالى ربا ولا إله ، وبراهين بطلان عبادة غيره كثيرة جدا ، ونحن نذكر لك منها طرفا صالحا يغنيك إن شاء الله تعالى ، فأقول وبالله التوفيق ومنه أستمد العون والفضل وحسن التحقيق : —

من البراهين على بطلان عبادة غيره التصريح منه جل وعلا ببطلان عبادة ما سواه ، وليس بعد هذا قوة ، ومن أصدق من الله قيلا وحديثا ، وذلك

كقوله تعالى " ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل " فقد حكم جل وعلا ببطلان عبادة ما سواه ، وليس بعد حكمه من حكم ، وقال تعالى " ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون " فنفى الله تعالى كون هؤلاء المعبودين من دونه شركاء معه في عبادته أي أنهم يدعون ويعبدون من لا حق له في شيء من عبادة الله تعالى ، وإنما يعبدونه بالظن الكاذب والوهم الفاسد والتخرص والهوى . وقال تعالى " وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير " وقال تعالى " ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير " .

ومن ذلك : — نفي أحقية عبادة هذه المعبودات من دونه — (لا) النافية للجنس ، كقوله تعالى " فاعلم أنه لا إله إلا الله " وقال تعالى " شهد الله أنه لا إله إلا هو " " وكل آية فيها (لا إله إلا الله أو إلا هو) فهي دليل على بطلان عبادتها .

ومن أوجه بطلان عبادتها : — النهي الصريح الجازم الأكيد القاطع عن عبادة ما سواه ، أي النهي الصريح عن الشرك ، والأمر باجتنابه والتباعد عنه ، كقوله تعالى " ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين " وقال تعالى " ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو " وقال تعالى " ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا " وقال تعالى " قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مئاب " وقال تعالى

" قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا " وقال تعالى " واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا " وقال تعالى " وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه " وقال تعالى " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا " وقال تعالى " قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على ما لا تعلمون " والآيات في هذا المعنى كثيرة .

ومن ذلك : — الأمر الصريح بإفراده جل وعلا بالعبادة ، والأمر بالشيء نهي عن ضده ، كقوله تعالى " واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا " وقال تعالى " قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به " وقال تعالى " ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت " يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون " وقال تعالى " إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم " وقال تعالى " يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون " وقال تعالى " ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه " وقالت الرسل لأممهم " اعبدوا الله ما لكم من إله غيره " وقال تعالى " فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون " وقال تعالى " ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم " وقال تعالى " إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون " والآيات في هذا كثيرة ، وكل آية فيها الأمر بعبادة الله تعالى فإنه يستفاد منها أمران : — الأمر بعبادته وهذا استدلال بالمنطوق ، والنهي عن عبادة ما سواه ، وهو استدلال بالمفهوم والتضمن .

ومن ذلك :— سلب خصائص الإلهية عنها ، ونفي صفات الكمال في حقها ، ووصفها بالأوصاف التي لا تصلح أن تكون معها آلهة ، كقوله تعالى " اتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا " فهل بالله عليك من كانت هذه صفته يصلح أن يكون إلها تصرف له العبادات من دون الله تعالى ؟ بالطبع لا ، وكقوله تعالى " أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون " فمن لا يخلق شيئا ومع ذلك هو مخلوق أصلا ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلا عن أن يملكه لغيره فإنه لا يصلح أن يكون إلها ولا معبودا من دون الله تعالى ، وكقوله تعالى عن إبراهيم أنه قال لأبيه " يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا " فمن لا يسمع ولا يبصر فلا يصلح لأن يكون إلها ، بل تبا له أن يكون إلها من دون الله تعالى ثم تبا له ، وكقوله تعالى " واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ، لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون " يخبر الله تعالى في هذه الآية أن الكفار قد اتخذوا من دونه آلهة يعبدونها ويتقربون لها بأنواع القربات ، ثم بين جل وعلا العلة من اتخاذها آلهة بقوله " لعلهم ينصرون " أي أنهم يرجون من هذه الآلهة العزة والنصر والتمكين في الأرض ، ثم أخبر الله تعالى أن هذه الآلهة ضعيفة الضعف المطلق ، وعاجزة العجز الكامل عن تحقيق مرادهم منها ، لأنها حجارة صماء عمياء بكماء لا نفع فيها ولا خير ولا صلاح ولا نصر يطلب منها ، وبين الله جل وعلا أن الأمر انقلب عليهم بحيث كانوا يرجون منها الحفظ والنصر فإذا هي أصلا تفتقر لمن يحفظها ممن أرادها

بسوء ، وتحتاج إلى من ينصرها إن نواها أحد بضرر فصاروا حولها محيطين
بها لحفظها ونصرها كالجنود المحيطين بالملك لحفظه ونصره ، فهم جند لها
يحضرون عندها دائما لحمايتها ، ومع ذلك لا يزالون يطلبون منها النصر
والعز والتمكين ، فإذا كانت هي أصلا عاجزة عن الدفاع عن نفسها
من أرادها بسوء ، فكيف ترجون منها تحقيق ذلك لكم ، هذا لا يكون
أبدا ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، فإذا كانت عاجزة عن نصر نفسها
فهي عن نصركم أعجز وأعجز وأعجز ، وهذا من باب الاستدلال
بالقياس الأولوي وهو حجة عند غالب العلماء ، وكقوله تعالى منكر
ومبطلا على اليهود عبادتهم للعجل " واتخذ قوم موسى من بعده من
حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا
اتخذوه وكانوا ظالمين " فنفى صلاحيته للإلهية بكونه لا يتكلم ولا يهدي
سبيلا وهذا سلب لخصائص الألوهية عنه ، وكقوله تعالى " ويعبدون من
دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون
" ذلك لأن الإله الحق هو من بيده الرزق ، فهذه المعبودات من دونه لا
يصلح أن تعبد لأنها لا تملك لنفسها الرزق فضلا عن غيرها ، فهذا
استدلال على بطلان عبادتها بسلب خصائص الألوهية عنها ، والآيات في
هذا المعنى كثيرة ، ولذلك فإن الكفار يحرصون الحرص الكامل على
اختلاق هالة من الحكايات والقصص المكذوبة الملفقة لهذه المعبودات ،
حتى يضيفوا عليها شيئا من صفات الكمال ، ليقنعوا غيرهم بصلاحيتها
للعبادة ، وكم وكم من القصص التي حبكت في هذا المجال حبك
الشياطين المضلة ، فهذا فقير لا يملك شيئا فما إن جاء وتوسل بالقبر

الفلاي إلاً وتفجرت عليه الدنيا بأموالها ، وهذه امرأة عزف عنها الخطاب فما إن مرغت وجهها عند الضريح الفلاي إلاً وانسد شارع بيتهم من كثرة الخطاب ، وهذا تائه عن أهله زمنا طويلا فما إن جاءت أمه إلى القبر وشقت جيبها وشكت حالها في فقد ولدها إلاً والولد يأتيها في نفس اليوم ، ونحو هذا الكذب ، والعجيب أنك تجد من يصدق هذه الخرافات التصديق القطعي الذي لا يقبل النقاش ، كل ذلك لأن عبادها عرفوا أن الناس سينظرون في صفات هذا المعبود فهم يحاولون أن يختلقوا من الكرامات لها ما يوجب مخادعة الخرقى الذين لا عقول لهم ممن أراد الله فتننتهم ، والمقصود أن من الأوجه الدالة على بطلان عبادة ما سوى الله سلب خصائص الألوهية وصفات الكمال عن هذه المعبودات .

ومن الأوجه أيضا: — الإخبار بأن هذه المعبودات لا تملك شيئا، بل هي عاجزة فقيرة ليس بيدها شيء، كما قال تعالى " والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير " وقال تعالى " فيا أيها الناس بالله عليكم من لا يملك القطمير هل يستحق أن يعبد من دون الله العلي الكبير مالك الملك جل وعلا ؟ وقال تعالى عن هذه المعبودات " ولا يملكون لأنفسه ضرا ولا نفعا " وقال تعالى " ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون " وقال تعالى " قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير " وقال تعالى " أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولوا كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون " فالذي لا يملك شيئا لا يصلح أن يكون ربا ولا إلها .

ومن البراهين الدالة على بطلان عبادة ما سوى الله تعالى : — التصريح بأن هذه المعبودات لا تسمع دعاء من دعاها ، ولو فرض أنها تسمع فإنها لا تقدر على إجابته وأنها لا تغني عن عابدها شيئاً ، قال تعالى " ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون " وقال تعالى " إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير " وقال تعالى " إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعواهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين " فكيف تترك عبادة من يسمع الدعاء ويحييه ويعبد من لا يسمع الدعاء ولو معه لما كان قادراً على إجابته ؟

ومن البراهين أيضاً : — الإخبار الصريح بضعف هذه المعبودات ، وأنها عاجزة عن الدفاع عن نفسها وذلك في مواضع متعددة كقوله تعالى " يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب " فانظر أيها العاقل بعين البصيرة كيف حال هذه الآلهة ، فهل بالله عليك تستحق أن ينظر لها بعين الاعتبار فضلاً عن أن تعبد من دون الله تعالى ، وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام " وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون قلوا من فعل هذا بأهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتي يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أنت فعلت هذا بأهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم

الظالمون ، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون " فانظر كيف كسرهما خليل الله تعالى حتى جعلها جذازا ولم يدافع منها صنم عن نفسه ، لأنها عاجزة لا حراك لها ، ولا قدرة لها ، فإبراهيم عليه السلام استدل لهم بالدليل العملي على بطلانها بأنها عاجزة ضعيفة ، وقد صفعهم على وجوههم صفة بيد من حديد حتى بان لهم حقيقة هذه الأصنام ولكنهم كابروا وعاندوا ونكسوا على رؤوسهم وأعمى الله بصائرهم ، وقال تعالى " ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين " فإظهر خليل الرحمن بطلان دعواه بأنه الله ببيان أنه ضعيف عاجز لا يقدر على شيء ، فاستدل بضعفه ومهانتة على أنه لا يصلح أن يكون إلها ولا ربا ، فالرب هو القوي القوة الكاملة والقادر القدرة الكاملة ، وذلك هو الله تعالى ، فهو وحده المستحق للعبادة لا شريك له .

ومن البراهين أيضا : — الإخبار الصريح أن كثيرا من هذه المعبودات تفتقر إلى عابدها في وجودها وأنها لا توجد إلا بصنعه ونحته ، كما قال تعالى " أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون " وذلك لأن من يفتقر لغيره في وجوده لا يصلح أن يكون إلها ولا معبودا ، لأن الرب هو واجب الوجود الأول الذي ليس قبله شيء ، وهو موجد كل موجود ، فهو الذي أوجدك لعبادته ، وأما كثير من المعبودات من دونه فالعابد هو

الذي أوجدها لكي يعبدها ، فهي المفتقرة له وليس هو من يفتقر لها ، كما روي في السير أن بعض العرب كان يتخذ تمثالا من التمر فيعبده فإن جاع أكل منه حتى يأتي عليه كله ، وكان بعضهم إذا نزل واديا جمع بعض الحجارة ليعبدها ثم يرحل عنها ويتركها فإذا حط رحله في واد آخر فعل ذلك مرة ثانية وهكذا ، هل من كان بهذه المثابة يصلح أن يعبد من دون الله تعالى ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

ومنها : — ضرب الأمثلة الحسية العقلية على بطلان هذه المعبودات ، وهذا في القرآن كثير جدا ونذكر لك بعض ذلك : — فمنه : — قوله تعالى " ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون " يقول : — أيها الناس إن من جملة ممتلكاتكم عبيدكم وإمائكم ، أي الأرقاء الذين هم تحت أيديكم ، فهل يرضى أحدكم أن يقاسمه عبيده في ماله ، فيأتي العبد ويقول : — يا سيدي اقسم مالك قسمين ، فلك نصفه ولي نصفه ، فهل يرضى أحد منكم أن يشاركه عبده في ماله وما هو من خصائصه وحقه ؟ هل يرضى أحدكم بذلك ؟ بالطبع لا ، فإذا كان أحدكم لا يرضى بأن يشاركه عبده في حقه فاعلموا أن العبادة هي من خصائصي وخالص حقي فكيف ترضون أن يشاركني بعض عبيدي فيها ؟ فكما أنكم لا ترضون بمشاركة عبيدكم في حقوقكم وخالص ما لكم ، فكذلك أنا لا أرضى بأن يعبد معي أحد من عبيدي لأن العبادة حقي الخالص ، وهذا يدل على عظم الظلم في الشرك ، لأن حقيقته أنك تقسم ما هو من حقوق الله تعالى

الخالصة بينه وبين عبيده ، وهذا لا يرضاه الله عز وجل ، كما قال تعالى " ولا يرضى لعباده الكفر " فالعبادة حق الله المحض الخالص الذي لا شركة لأحد معه فيه ، وهذا واضح . ومنه : — قوله تعالى " مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون " وهذا له تفسيران ، أحدهما : — أن المشرك إنما يتخذ آلهة من دون الله تعالى لتحميه وتنصره وتحفظه من الشر والأعداء ولكن إذا حلت ساعة الصفر وتحقق الافتقار لهذه المعبودات فإذا هي لا نفع فيها ولا خير يأتي من قبلها ولا تغني ولا تسمن جوع ولا يأتي من قبلها نصر ولا فرج ولا عز ولا أي نفع لأنها أصلا عاجزة ضعيفة ليس فيها من صفات النفع والحفظ شيء ، فذلك مثل العنكبوت التي تتخذ بيتا من خيوط رقيقة بيضاء شفافة سهلة التمزيق ، تريد أن يحفظها بيتها من كيد أعدائها فما إن يريد لها أحد بسوء إلا وأول من يخذلها هو بيتها الذي ظنت فيه النفع والنصر والحماية والحفظ وهو مسكين ضعيف عاجز عن تحقيق ذلك ، فلا نفع فيه ولا خير ولا عز ولا نصر ولا حفظ ، فالمشرك مثله كمثل هذه العنكبوتة ، وآلهته مثلها كمثل بيت العنكبوتة ، فما يضمنه هذا المشرك في آلهته من الحماية والحفظ والنفع هو بعينه ما تضمنه هذه العنكبوتة في بيتها فإذا حل وقت الضرورة فلا نفع ولا أي شيء ، فالذي لا نفع فيه من جلب خير أو دفع ضرر فإنه لا يصلح أن يكون ربا ولا إلها ، كما أن البيت الذي لا نفع فيه ولا يحمي ولا يحفظ من فيه لا يصلح أن يكون بيتا ، وعلى هذا التفسير يكون الاستدلال على بطلان عبادتها بأنها عاجزة ضعيفة لا خير يرجى من

ورائها ولا نفع يحصل منها . والتفسير الثاني : — أن بيت العنكبوت لا يوجد فيه إلا عنكبوت واحد ، كما نحن نرى في غالب بيوتها ، فبين أفراد العنكبوت عداوة شديدة ، فالأنثى تنقلب على الذكر بعد تلقيحها فتقتله ، وإذا وضعت بيضها أكلته إلا ما نجا منه ، ومن أراد الدخول عليها في بيتها قاتلته أشد القتال ، فبينها عداوة شديدة ، والمشرك الذي يعبد آلهة من دون الله تعالى إنما يعبدها لتكون له عزا ونصرا وحاميا وحافظا ، وهذا سينقلب عليه يوم القيامة ، لأن هذه الآلهة من دون الله ستكون عدوا له ، فتتبرأ من عبادته ، وينكر بعضهم بعضا ، ويلعن بعضهم بعضا ، فخذلته وكذبتة وكفرت بعبادته في أحوالها ، فالعابد والمعبود من دون الله تعالى سيكون بينهم من العداوة واللعن والإنكار والتكذيب كما يكون بين أفراد العنكبوت من العداوة ، وعلى هذا التفسير يكون الاستدلال على بطلان عبادتها بأنها ستكون عدوا لمن يعبدها يوم القيامة ، فكيف يعبد العاقل من هو عدو له في حقيقة الأمر ؟ والله المستعان . ومن الأمثلة أيضا : — قوله تعالى " ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون " فالمشرك يعبد آلهة كثيرة ، يكفيك دليلا على ذلك أنه كان حول الكعبة قبل الفتح ثلاثمائة وستون صنما ، وعباد البقر ضربوا أحسن الأمثلة على تعدد الآلهة فإن كل بقرة في العالم لها حضنها ونصيبها من الاحترام والعبادة ، والعابد المسكين مع تعدد الآلهة عقله مشوش وفكره مشغول بإرضاء كل هذه الآلهة ، لا يدري من هو ربه الحقيقي ، ولا يدري أي إله منها يقدم في الرضا ، ولا يدري من يستعين

به عند حلول المصائب والكوارث والفتن ، وانظر إلى عباد القبور في العالم ، كم بالله عليك من قبر يعبدون ، وكم من ميت في العالم يعظمون ، فكل قبر وميت له من هذا العابد حظ ونصيب من التعبد ، فله في كل بقعة إله يعبده ، ويتقرب إليه ، وأما الموحد الذي لا يعبد إلا الله تعالى فإنه مطمئن القلب ومرتاح البال وهادئ الفكر لأنه عرف أنه ليس له إلا إله واحد قد أقبل بكل أحاسيسه وجوارحه على التقرب له بما يحبه هذا الرب ويرضاه ، لا يأخذ الأوامر إلا منه ، ولا يتعرف على الشرع إلا من قبله ، قد سلم قلبه من كل أحد إلا من هذا الواحد فقط ، فهل حال هذا كحال من تعددت أربابه ، وتنوعت معبوداته ؟ لا والله إن بينهما لفرقا كما بين السماء والأرض ، وذلك كحال العبد الذي اشترك في شرائه جماعة مختلفون فيما بينهم ، فتعددت أسياده ، وهم مع تعددهم متشاكسون مختلفون ، فهذا يأمره بأمر بينما ينهاه الآخر عنه ، وهذا يقول : — أعطني هذا ، بينما يقول الآخر : — لا تعطه هذا ، فيبقى هذا العبد مع تعدد أسياده حائر الفكر متذبذب ، مشوش الخاطر معذب ، لا يدري من السيد الذي يعتمد أوامره ، ويقبل على طاعته ، فأين هذا من العبد الذي توحد سيده فلا يملكه إلا واحد فقط ، يأتمر بما أمره به ، وينتهي عما نهاه عنه ، ويسعى في خدمته بما يريد ، فهل يستوي هذا العبد في همه وتفكيره وطاعته ومحبه لسيده وتفانيه في خدمته ، مع حال العبد الأول ؟ فحقيقة من تعددت آلهته كحقيقة العبد الذي تعددت أسياده ، وأما العبد الذي لم يشرك مع الله غيره في شيء من عبادته فحاله كحال العبد لذي ليس له إلا مالك واحد ، فهل يستويان مثلا " الحمد لله بل

أكثرهم لا يعلمون " والأمثلة القرآنية في هذا المعنى كثيرة ، ولعلنا مع سعة الوقت نفرد شرحها في رسالة خاصة فإنها من أنفع ما يكون ، يارب أسألك باسمك الأعظم أن توفقي لذلك ،

ومن البراهين على عبادة ما سوى الله تعالى أيضا : — الإخبار الصريح من الله تعالى أن هذه المعبودات ستبترأ من عابدها يوم القيامة ، وستكون عدوا له ، كما قال تعالى " وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين " وقال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه قال لقومه " وقال إنما اتخذتم أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم ومأواكم النار وما لكم ناصرين " وقال تعالى عمن كان يعبد الملائكة الكرام " ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون " وقال تعالى " ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير " فكيف بالله عليك يعبد العاقل من سيكفر بعبادته ويكون له عدوا ومخاصما يوم القيامة ؟ تالله إن هذا لمجانب للعقل كل المجانبة، وأما الله تعالى فإنه النافع لمن أخلص له في العبادة النفع الكامل التام في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأقول : — إن اللاتمة إذا ألقيت على الشياطين فإنها لا ترضى بذلك ، بل ستبترأ من هذا اللوم كما قال تعالى عن أبيهم إبليس " وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرحكم وما أنت بمصرحي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن

الظالمين لهم عذاب أليم " وإن النصارى يلقون باللائمة على نبي الله عيسى عليه السلام فيتبرأ إلى الله تعالى مما قالوا ولا يرضى بذلك كما قال تعالى " وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد " وبالجملة فكل ما عبد من دون الله تعالى فإنه سيتبرأ من عابده يوم القيامة ، وسيكون عدوا له ، وهذا من أكبر الدلائل على بطلان عبادة ما سوى الله تعالى .

ومن البراهين أيضا: — الإخبار الصريح بأن أكثر هذه المعبودات ستكون مع من يعبدها في النار وبئس القرار ، فلو كانت آلهة بحق لما كان الأمر كذلك ، وذلك كما قال تعالى " إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون ، لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون " وقال تعالى " فكذبوا فيها هو والغاؤون وجنود إبليس أجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون ، تالله إن كنا فلي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ، وما أضلنا إلا المجرمون ، فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ، فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين " وفي الحديث " الشمس والقمر ثوران مكوران في جهنم " ومما ذكره أهل العلم في حكمة ذلك أنه من باب زيادة تبكيت أهل النار بأن هذه آلهتكم التي كنتم تعبدون من الله تعالى معكم في جهنم ، فيزاد عليهم بهما العذاب

الحسي والمعنوي ، حيث إنهم يرون ما كانوا يعبدون ويعظمون ويستهلون إليه في الدنيا قد دخل معهم في النار ، وهذا والله من أعظم الخزي والعار والعذاب ، وفي الحديث " قال فيقول :— من كان يعبد شيئاً فليتبعه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ومن كان يعبد القمر القمر ، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت ... الحديث " فالمشركون إنما عبدوا هذه الآلهة لكي تحميهم من العذاب وتكون شافعة لهم عند الله تعالى فإذا بها تكون معهم في النار ، وأنت خبير بأن هذا الأمر إنما هو فيها عبد وهو راض ، وفيما عبد من الجمادات من الأشجار والأحجار ونحوها ، وأما من عبد من الملائكة والأنبياء وأولياء الله الصالحين الذين لا يرضون بعبادة من بعدهم من دون الله تعالى فإنهم عن النار مبعدون ، كما قال تعالى " إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيستها وهم فيما اشتتت أنفسهم خالدون " وقد أخبر الله تعالى عن حال أوليائه من الأنبياء والأولياء بأنهم دائبون في طاعة الله مشتغلون بها كما قال تعالى " أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه " والمقصود أن كل من عبد من دون الله تعالى فإنه سيتبرأ من عباده يوم القيامة ويكون لهم عدوا وأن هذا من البراهين على بطلان عبادتها إذ لو كانت آلهة بحق لنفعت وما ضرت .

ومن البراهين أيضا :— الإخبار الصريح من الله تعالى بأن هذه المعبودات لا تملك ضرا ولا نفعا لا لنفسها ولا لمن يعبدها ، كما قال تعالى " ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله " وقال تعالى " قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن

أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ، قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون " وقال تعالى " واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا " فبالله عليك أيها العقل كيف تعبد ما لا يملك ضرا ولا نفعا لا لنفسه ولا لك ، وتترك عبادة من بيده النفع والضر كله ، فلا يجلب الخيرات إلا هو ، ولا يدفع السيئات إلا هو ، ولا إله إلا هو ، فهو الإله الحق وإن جحده الجاحدون وعطله المعطلون وكذب به المفترون ، وهو الإله الحق وإن كفر به الكافرون وأشرك به المشركون وشكك فيه المشككون ، فإن أحقيته للإلهية ليست موقوفة على موافقة أحد ولا معارضته ، بل هي حق في ذاتها ولو اتفق الكل على التكذيب بها ، كما أن إلهية غيره باطل وبهتان في ذاتها فليس بطلائها موقوف على إنكار أحد بل هي الباطل بالذات وإن صدقها كل أحد ، فالهية الله تعالى وحده هي الحق بالذات وإلهية غيره هي الباطل بالذات ، والعز لنا في عبادته جل وعلا وليس العز له في أن نعبد ، كلا وألف كلا ، فنحن المفتقرون إليه الافتقار الذاتي كما أنه الغني عنا الغني الذاتي ، فلا يتصور البتة أن يحتاج لنا في شيء كما أنه لا يتصور أن نستغني عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك ، ولكن الإنسان كفور مبين .

ومن البراهين أيضا :— الاستدلال على بطلان عبادتها بكونهم عباد أمثالنا ، كما قال تعالى " إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين " وكيف يدعو العبد من هو عبد مثله ويترك عبادة الرب الذي خلق الكل ؟

ومن البراهين أيضا: — الاستدلال على بطلان عبادتها بقياس الأولى وذلك من وجهين: —

الأول: — الاستدلال على ذلك ببطلان عبادة الملائكة ، وذلك أن الله تعالى قد وصف الملائكة بصفات لا يصلحون معها أن يكونوا آلهة من دون الله تعالى كما قال تعالى في وصفهم " بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون " ومن كان ذلك فلا يصلح أن يكون إلها ، وقال تعالى نافيا إلهيتهم ومتوعدا من يقول منهم شيئا من ذلك " ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين " ووصفهم كذلك بأنهم يؤمرون وينهون من قبل الله تعالى كما قال تعالى " لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون " وقال تعالى مقرا تبرا للملائكة من عبادة غيرهم لهم والرضا بها " ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ، قلوا سبحانك أنت ولينا من دونهم لا كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون " ووصفهم تعالى بأنهم يصيبهم الفزع عند سماع الوحي كما قال تعالى " حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ما ذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير " وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: — " إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك ، حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ما ذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ... الحديث " وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: — " إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي

أخذت الملائكة منه رجفة — أو قال — رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرروا لله سجداً فيكون أو من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها ، ما ذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : — قال الحق وهو العلي الكبير ، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله تعالى " ، فمن أصابته الرعدة والخوف الشديد فإنه لا يصلح أن يكون ربا ولا معبودا من دون الله تعالى ، وقال تعالى " وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى " فإذا كانت الملائكة على عظم أجسامها وعلو منزلتها وقربها من الله تعالى وأنهم العباد المكرمون ، الأقوياء الأشداء ، مع عظمة ما ورد لهم من الصفات في الكتاب وصحيح السنة ، إذا كانوا مع كل ذلك لا يصلحون لأن يكونوا آلهة يعبدون ولا أن يصرف لهم شيء من العبادة فكيف بمن هو دونهم في الفضل والمترلة والرتبة والصفات والقرب من الله تعالى ؟ لا شك أنه لا تصلح عبادته من باب أولى ، وهذا هو ما نعنيه بالقياس الأولي ، وهو قياس واضح ، فإذا كانت الملائكة لا تصلح لمقام الألوهية ، فكيف بالحجر والشجر والقبور والبقر والشمس والقمر ؟ لا شك أنها لا تصلح من باب أولى .

الثاني : — أن الأنبياء عليهم السلام لا يصلحون لأن يكونوا أربابا تعبد من دون الله تعالى وبيان ذلك ، أولا : — أنهم مخلوقون والمخلوق لا يصلح أن يكون إلها ، وثانيا : — أنهم عباد أمثالنا وإنما فضلوا علينا

بالنبوة والرسالة ومتعلقاتها، ومن كان عبداً مثلك فإنه لا يصلح أن يكون إلهاً لك، وثالثاً: — أنهم يأكلون ويشربون، أي أنهم محتاجون للطعام والشراب والرب لا يصلح أن يكون محتاجاً لشيء كما قال تعالى مستدلاً على بطلان دعوى أن عيسى وأمه إلهين من دونه: — " ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أني يؤفكون " ومن يأكل الطعام فإنه محتاج له ومحتاج لفوائده ومحتاج لتحليله ومحتاج لمضغه وبلعه وهضمه وإخراجه، وهل من كان كذلك يصلح أن يكون إلهاً؟ بالطبع لا، وذلك فقد مدح الله نفسه بأنه الصمد فقال " قل هو الله أحد الله الصمد " ومن تفسيرات السلف للصمد بأنه الذي لا جوف له فلا يأكل ولا يشرب، وقال تعالى " وهو يطعم ولا يطعم " ولأنه الغني عن كل شيء جل وعلا، فهو الإله الحق وحده لا شريك له، وقال تعالى عن نبيه وخليله محمد صلى الله عليه وسلم " قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء " فالنبي صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلا عن أن يملكه لغيره، ومن كان كذلك فلا يصلح أن يكون لا ربا ولا إلهاً، وكذلك هو لا يعلم الغيب، ومن لا يعلم الغيب فلا يصلح أن يكون إلهاً، وكذلك هو يصيبه السوء أي المصائب وغيرها، ومن كان كذلك فإنه لا يصلح أن يكون ربا، وقال تعالى عنه " قل إنما أنا بشر مثلكم " ومن كان بشراً مثلنا فلا يصلح أن نعبد من دون الله تعالى، وقال تعالى "

ليس لك من الأمر شيء " فهل بعد ذلك يعتقد فيه أنه يحمل شيئاً من صفات الألوهية ؟

وفي الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : — شج النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسرت رباعيته ، فقال " كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟ " فتزلت " ليس لك من الأمر شيء " وفي رواية " يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام " فتزلت " ليس لك من الأمر شيء " وفي الصحيح أيضاً أنه لما نزلت عليه " وأنذر عشيرتك الأقربين " قام فقال : — " يا معشر قريش — أو كلمة نحوها — اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً بابني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبداً لطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت محمد سليمان من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً " فمن لا يغني عن أقرب أقربيه شيئاً فهل يصلح أن يكون إلهاً من دون الله تعالى ؟ بالطبع لا ، والنصوص في هذا المعنى كثيرة جداً ، وكذلك موسى عليها الصلاة والسلام فإنه لما " تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً " من هول ما رأى ، ومن يصيبه الصعق فلا يصلح أن يكون إلهاً ، وبالجملة فأنبياء الله هم أفضل البشر على الإطلاق والرسل أفضل من الأنبياء وأفضل الرسل الخليلان وأفضلهما محمد صلى الله عليه وسلم فإذا كانوا على قربهم من الله تعالى وعظمة تعبدتهم له ، ومحبة الله تعالى لهم ، واختيارهم واصطفائهم على سائر خلقه لا يصلحون أن يعبدوا من دون

الله تعالى فكيف بمن هو دونهم في الرتبة والمترلة ؟ لا شك أنه يمتنع ذلك في حقه من باب أولى ، وهو ما نعنيه بالقياس الأولوي ، فأفضل المخلوقات على الإطلاق هم الملائكة والأنبياء وقد قررنا لك بالدليل أنهم لا يمكن أن يكونوا آلهة مع الله تعالى فمن دونهم من باب أولى أنه لا يصلح أن يكون آلهة تعبد مع الله تعالى ، وبعد ذلك أقول :— لقد تقرر لك في هذين الفصلين المهمين جدا أمران اثنان لا بد من الإيمان بهما واعتمادهما وهما :— الأول :— أن العبادة حق محض لله تعالى ، الثاني :— أن سائر الخلق أيا كانت منزلتهم ورتبتهم وجنسهم لا يستحقون شيئا من العبادة ، فاحفظ هذين الأصلين فإنهما لب الدين وجماعه ، وأساسه ومنطلقه ، وإياك أن تزيع بك الأهواء وتعصف بك الفتن ، وتضللك عنهما شياطين الإنس والجن ، عصمنا الله وإياك من كل بلاء وفتنة . والله ربنا أعلى وأعلم.

فصل

واعلم رحمك الله تعالى أن من صرف العبادة لغير الله تعالى فقد وقع قي الشرك الأكبر ، وهذا الشرك له آثار سيئة ، وعواقب وخيمة ، ومن باب التهيب منه نذكر لك بعضها :—
فمنها :— أن الشرك الأكبر هو أظلم الظلم وأعظم الافتراء وغاية الفساد ، ونهاية الخسارة ، وأكبر الذنوب على الإطلاق ، قال تعالى " إن الشرك لظلم عظيم "

ومنها: — أن الشرك الأكبر معناه مساواة المخلوق الضعيف من كل وجه بالخالق القوي من كل وجه ، ففيه التنديد الكامل ، قال تعالى عن أهل النار " تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين " ومنها: — أن الشرك الأكبر موجب للخروج من الملة بالكلية ، فلا يبقى معه مطلق الإيمان والإسلام ، فلا حظ في الإسلام لمن وقع في شيء من الشرك الأكبر .

ومنها: — أن الشرك الأكبر موجب لحبوط الأعمال ، كما قال تعالى " ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين " والصحيح عندنا أنه حبوط الأعمال السابقة مشروط بالموت عليه كما قال تعالى " من يتردد منك عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة " فقيد الحبوط مع الردة بالموت ، وقد تقرر أن المطلق يحمل على المقيد إذا اتفقا في الحكم ، وقال تعالى " وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا " وقال تعالى " ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون "

ومنها: — أن الشرك الأكبر موجب للخلود الأبدي في نار جهنم — والعياذ بالله منها — فالمشركون الشرك الأكبر لا يخرجون من النار أبد الآباد ، يتقلبون فيها أبد الدهر ، لا مغيث ولا ناصر لهم ، يصرخون ويدعون ويستغيثون ويعاهدون ، ولا يجيب لهم ، ماكتون فيها إلا ما لا نهاية ، تنضح فيها جلودهم وتتقرح فيها أجسادهم ، وتوصد أبوابها عليهم ، ويضربون فيها بمطارق الحديد ، طعامهم فيها الزقوم وشراهم فيها الصديد، فرشهم نار ومهادهم نار ، فيا أيها العاقل الحصيف

، النجاء النجاء، فإني عليك لمشفق ولك ناصح ، احذر من مسلك الشرك ، والزم جادة التوحيد فإنه لا نجاة إلا بذلك .

ومنها : — أن الشرك الأكبر موجب للعداوة المطلقة ، وموجب للبغضاء المطلقة ، كما قال تعالى " قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براءؤا منكم ومما تعبدون من دأون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ... الآية "

ومنها : — أن الشرك الأكبر موجب للبراءة المطلقة كما ذكرناه في الآية قريبا .

ومنها : — أن الشرك الأكبر موجب للخسارة المطلقة كما قال تعالى " لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين " .

ومنها : — أن الشرك الأكبر مزيل لأمن المطلق ، فلا يجتمع الأمن مع الشرك ، كما قال تعالى " الذين ءآمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون " .

ومنها : — أنه موجب لإلقاء الرعب في القلوب ودوام الخوف كما قال تعالى " سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل عليهم سلطانا ومأواهم النار وما لهم من ناصرين " والباء هنا هي باء السبب ، أي بسبب شركهم ألقينا في قلوبهم الرعب .

ومنها : — أن من أشرك بالله تعالى فقد افترى أعظم الإثم ، كما قال تعالى " ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما "

ومنها: — أنه موجب لسوء الخاتمة ، كما قال تعالى " فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد " .

ومنها: — أنه موجب لعدم انفتاح أبواب لسماء لوحه الخبيثة ، كما قال تعالى " إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين "

ومنها: — أنه موجب لطرح روحه من السماء إلى أسفل سافلين ، كما قال تعالى " ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق "

ومنها: — أن الجنة عليه حرام ، كما قال الله تعالى " إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار "

ومنها: — أنه موجب لصاحبه أن يوصف بالضلال البعيد ، كما قال تعالى " ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا " .

ومنها: — أنه لا يدخل في حدود ما يغفر من الذنوب ، إن مات مصرا عليه ، كما قال تعالى " إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " وهو الآية في حكم الآخرة بالاتفاق ، وأما إن تاب منه في الدنيا زمن الإمكان فالله يتوب عليه " إن الله يعفر الذنوب جميعا " .

ومنها: — أنه مبيح للدم والمال كما في الحديث " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ... الحديث "

ومنها: — أنه مانع من إنشاء النكاح إلا في الكتابية خاصة ، كما قال تعالى " ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ... الآية " بل ومانع من استمراره فيما لو طراً عليه كما قال تعالى " ولا تمسكوا بعصم الكوافر " ومانع من التوارث ، كما في الحديث " لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم " ، ومانع من دخول المسجد الحرام ، كما قال تعالى " إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا " ومانع من الولاية ، فلا ولاية للكافر على المسلم لا في النكاح ولا في الحضانة ولا في غيرهما ، ومانع من قبول الشهادة فلا تقبل شهادة المشرك على المسلم ، إلا في السفر إن لم يك ثمة مسلم ، فهذا غيظ من فيض من آثار هذا الجرم الكبير والذنب العظيم والمصيبة الخطيرة والبلية الجسيمة ، فالحذر الحذر منه بكل ما آتاك الله تعالى من قوة ، ولا يكون ذلك إلا بالعلم المؤصل على هدي الكتاب والسنة ، فالزم جادة التوحيد فإنه لا نجاة في الدارين إلا بلزومها .

فصل

أقول: — وكما أن الشرك له آثاره الوخيمة وعواقبه السيئة فكذلك التوحيد الخالص له آثاره الطيبة ، وعواقبه الحميدة ، في الدنيا والآخرة ، وعلى الفرد والمجتمع ، وهي آثار كثيرة ونقتصر على أهمها ، فأقول وبالله التوفيق: —

منها: — أنه أول واجب وأعظم واجب ، وأفخم واجب على الإطلاق ، وأحب واجب إلى الله تعالى ، وأهم واجب .

ومنها: — أنه لا عصمة للدم والمال إلا به ، كما قال تعالى " فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين " وقال عليه الصلاة والسلام: — " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله " وقال عليه الصلاة والسلام: — " من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله " .

ومنها: — أن التوحيد هو مفتاح الجنة فلا تفتح لأحد إلا بمفتاح التوحيد ، قال البخاري في ترجمة باب: — وقيل لوهب بن منبه: — أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ، قال بلي ، لكن ليس مفتاح إلا وله أسنان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك . والمراد بالأسنان أي الأعمال الصالحة .

ومنها: — أن التوحيد هو أساس العمل وأساسه وشرط قوله ، كما قال تعالى " وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا " لأنها لم تبني على التوحيد، وعن عائشة رضي الله عنها قالت قلت: — يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه؟ قال " لا ، إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين " أي لم ينطق بشهادة الحق ، وفي الحديث " من لقي الله وهو لا يشرك به شيئا دخل الجنة ولم تضره معه خطيئة ، كما لو لقيه وهو لا يشرك به دخل الجنة ولم ينفعه معه حسنة " رواه أحمد .

ومنها: — أن من مات عليه فإنه سيدخل الجنة حتما ، إما ابتداء وإما انتقالا ، فلن يخلد في النار أحد من أهل التوحيد ، وفي الحديث " من كان

آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة " وفيه أيضا " من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة " ، وقال عليه الصلاة والسلام :— " من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل " وقال عليه الصلاة والسلام :— " من لقي الله يشرك به شيئا دخل النار ، ومن لقيه لا يشرك به شيئا دخل الجنة " وقال عليه الصلاة والسلام :— " لقنوا موتاكم لا إله إلا الله ، فإن من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة يوما من الدهر وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه " وعن أبي ذر رضي الله عنه قال :— قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :— " ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك دخل الجنة " قلت :— وإن زنى وإن سرق ؟ قال " وإن زنى وإن سرق " قلت :— وإن زنى وإن سرق ؟ قال " وإن زنى وإن سرق " قال : وإن زنى وإن سرق ؟ قال " وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر "

ومنها :— أن الموحد المخلص حرام عليه النار ، فلا تمسه أبدا ، قال صلى الله عليه وسلم " فإن الله تعالى حرم على النار من قال لا إله إلا الله بيتغي بذلك وجه الله " وفي حديث عبادة مرفوعا " من شهد إن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار " وقال صلى الله عليه وسلم " ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه على النار " وقال عليه الصلاة والسلام " من قال لا إله

إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فذل بها لسانه ، واطمأن بما قلبه لم تطأه النار "

ومنها :— أن حسنة التوحيد عظيمة لا يقوم لها شيء ، فقد تكون في بعض الخلق مكفرة لكل ذنوبه وخطاياها ، ففي الحديث عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم :— " قال موسى :— يارب علمني شيئا أذكرك وأدعوك به ، قال :— يا موسى قل لا إله إلا الله ، قال يارب كل عبادك يقولون هذا قال يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله " ، وعن عبدا لله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :— يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ، ثم يقال له :— هل تنكر من هذا شيئا ؟ فيقول :— لا يارب ، فيقول :— ألك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل فيقول :— لا يارب ، فيقول :— إن لك عندنا حسنات وإنه لا ظلم اليوم عليك فتخرج له بطاقة فيها ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فيقول :— يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال :— إنك لا تظلم ، قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة " رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان .

ومنها :— أن من مات على التوحيد فإن هذا من علامات حسن الخاتمة التي لا أحسن منها ففي الحديث عن طلحة مرفوعا " إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا أشرق لها لونه ونفس الله عنه كربته "

رواه أحمد ، وعن معاذ رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة " .
ومنها :— أن من حقق التوحيد فإنه مؤهل لأن يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب ، كما في حديث ابن عباس ، وفيه :— " فرأيت سوادا عظيما فقيل لي :— هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب " ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك فقال بعضهم :— فلعلهم الذين صحبوا النبي صلى الله عليه ، وقال بعضهم :— فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا وذكروا أشياء ، فخرج عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا له ذلك ، فقال :— " هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون "

ومنها :— أن التوحيد هو دين الفطرة ، كما قال تعالى " وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين " وقال تعالى " فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون " وفي الحديث عن أبي هريرة مرفوعا :— " ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء " ثم يقرأ الآية السابقة ، وفي حديث عياض بن حمار المجاشعي قال :— قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :— " قال الله تعالى :— وإني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم

عن دينهم .. الحديث " وكان صلى الله عليه وسلم إذا أصبح قال :— " أصبحنا على فطرة الإسلام وعلى كلمة التوحيد " وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :— سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول :— الله أكبر الله أكبر فقال :— " على الفطرة " ثم قال :— أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، فقال " خرجت من النار " رواه مسلم ، فالتوحيد هو دين الفطرة .

ومنها :— لأنه صلى الله عليه وسلم كان يوصي بالتوحيد ، ويحث عليه ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :— دلي على عمل إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال :— " تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان " قال :— والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا ، فلما ولى قال النبي صلى الله عليه وسلم :— " من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا " منفق عليه ، وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن أعرابياً عرض لرسول الله وهو في سفر ، فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال :— يا رسول الله أخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني من النار ، فكف النبي صلى الله عليه وسلم ثم نظر في أصحابه ، ثم قال " لقد وفق " أو " لقد هدي " قال كيف قلبي ، قال فأعاد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم ، دع الناقة " متفق عليه ، وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه أراد سفراً ، فقال يا رسول الله ، أوصني ، قال " اعبد الله ولا تشرك به شيئاً " قال يا رسول الله زدني ، قال " إذا أسأت

فأحسن " قال :— يا رسول الله زدني ، قال " استقم ولتحسن خلقك " أخرج الحاكم والطبراني .

ومنها :— أنه من أهمية التوحيد وأنه ركيزة الإسلام الأولى فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كان يأخذ عليه البيعة ، فكان كثيرا ما يبايع أصحابه على أن يعبدوا الله تعالى وحده ولا يشركوا به شيئا ، ففي الصحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنهما قال :— قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله عصابة من أصحابه :— " بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من شيئا فستره الله كان أمره إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه " وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ العهد على من أسلم من النساء بقول الله تعالى " إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ... الآية بتمامها " وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال :— جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبايعه على الإسلام فـ_____ قال " أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئا ... الحديث " وأخذ العهد على جمع كبير من أصحابه ، وما ذلك إلا لأهمية التوحيد ، وعظم شأنه وفخامة أمره .

ومنها :— أن أهل التوحيد هم أهل الأمن والاهتداء ، وقد تقدم طرف من .

ومنها :— أهل التوحيد هو أسعد الناس بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا "أسعد الناس بشفاعتي ن قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه " وعنه ، مرفوعا " شفاعتي لمن قال لا إله إلا الله مخلصا ، وأن محمدا رسول الله يصدق لسانه قلبه ، وقلبه لسانه " أخرجه ابن حبان ، وعنه مرفوعا " لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا " وفضائل التوحيد كثيرة لا تكاد تحصر .

فصل

وما مضى هو شرح القاعدة من باب التنظير والتأصيل والتدليل ، وبقي علينا أن نشرحها من باب لتفريع ، وفروع هذه القاعدة كثيرة جدا ، ولكن نقتصر منها على أهمها ، ولعل ما يذكر يدل على إن شاء الله تعالى على حكم ما لم يذكر ، فإلى ختام القاعدة بذكر فروعها ، فأقول وبالله تعالى التوفيق ومنها أستمد الفضل والعون وحسن التحقيق :—
مما يتفرع عليها :— الدعاء ، فالدعاء من العبادات العظيمة ، بل هو كل الشرع ، فالشرع كله أقواله وأفعاله لا تخرج عن حد الدعاء ، وبيان ذلك أن يقال :— إن الدعاء نوعان :— دعاء عبادة ودعاء مسألة ، فدعاء العبادة أن تفعل عبادة ترجو بها وجه الله والدار الآخرة ، فهذه العبادة تضمنت الدعاء ، لكنه دعاء عبادة ، ودعاء المسألة هو دعاء الطلب ، كأن ترفع يديك وتدعو الله تعالى ، فهما نوعان ، لكنهما

متلازمان أخوان لا ينفكان ، فدعاء العبادة متضمن لدعاء المسألة ، ودعاء المسألة يستلزم دعاء العبادة ، فالدعاء كله بقسميه عبادة ، وحيث كان عبادة فيكون حقا خالصا صرفا وحقا لله تعالى ، لا يجوز أن يصرف لغيره ، فلا يدعى إلا الله تعالى لا يشرك معه في دعائه أحد لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا وليا صالحا ، لأنه حق الله تعالى ، فالله تعالى هو وحده المدعو في السراء والضراء ، وفي كبار الأمور وصغارها ، وفي أمر الدنيا والآخرة ، فلا ترفع يديك إلا له جل وعلا ولا يتعلق قلبك في الدعاء إلا به عز وجل ، لأنه وحده مجيب الدعوات وقاضي الحاجات سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى " وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين " فأمر الله تعالى بدعائه وحده ، لأن قوله (ادعوني) أمر وقد تقرر في الأصول أن الأمر بالشيء نهي عن ضده ، فالأمر بدعائه يتضمن النهي عن دعاء غيره ، ووعد الداعين بالإجابة ، ثم توعدهم الذين يستكبرون عن عبادته بدخول النار ، فقوله (عن عبادتي) أي عن دعائي ، فسمى الدعاء عبادة ، مما يدل على أنه من خصائصه جل وعلا ، وقال تعالى " ولا تدع مع الله إلها آخر " فنهى جل وعلا عن دعاء غيره ، ووصف هذا المدعو من دونه بأنه إله آخر لمن دعاه ، مما يدل على أنه تعبد له بصرف الدعاء له ، فأفاد ذلك أن صرف الدعاء لغيره جل وعلا من جملة التأله لغيره ، وتأليه غير الله تعالى شرك ، لأن الله إله واحد لا شريك له ، فدل ذلك على أن صرف الدعاء لغيره من صور الشرك ، فيدخل في ذلك من دعا الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء أو القبور أو غيرها مما يدعوه المشركون ، لأن الدعاء عبادة

والعبادة حق الله الصّرف المحض الذي لا شركة لأحد معه فيه ، فلا يدعى إلا إله واحد ، هو الله تعالى ، وقال تعالى " ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين " وهذا نهي عن دعاء غيره ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً ، لأن الدعاء عبادة والعبادة حقه المحض جل وعلا ، والله تعالى لا يرضى أن يصرف خالص حقه لغيره ، لا كلا ولا بعضاً ، فمن دعا غير الله تعالى فقد وقع في أعظم الظلم ، وهو الشرك ، وقال تعالى " فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذنين " فأخبر الله أن من دعا معه شيئاً آخر فإنه من المعذنين لأنه صرف ما هو من خالص حقه لغيره جل وعلا ، وقال تعالى " وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون " ومن كان قريباً فإنه لا يحتاج إلى وسائط تبلغه دعاء عبيده ، بل هو القريب السميع لدعاء الداعين وتضرع المتضرعين ، كما قال تعالى " أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء " وكل لفظة (دعا) وما تصرف منها كـ (يدعون ، تدعون ، تدع ، دعوا ، تدعوهم ، فادعوهم ، ندع ، ادعوا ، ونحوها) كل ذلك يفسر بأنه دعاء العبادة ودعاء المسألة ، وقد يكون أحدهما في بعض الآيات ألصق في المعنى من الآخر ، لكن ذلك لا ينفي أن يكون الآخر مراد ، لأنه قد تقرر في القواعد أن اللفظ إذا احتمل معنيين لا تنافي بينهما حمل عليهما ، ولذلك فإن السلف عند تفسير مثل هذه الألفاظ منهم من يفسرها بدعاء المسألة ، ومنهم من يفسرها بدعاء العبادة ، وهذا من قبيل تفسير التنوع لا التضاد ، لأن الكل مراد ، وكله حق ، فالله هو المتوحد بالدعاءين ،

فلا يدعى إلا هو وحده سبحانه بكلا الدعاءين ، وقال تعالى " قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا " أي لا أدعو أحدا معه جل وعلا لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة ، لأن الدعاء حقه الخالص ، وانظر كيف وصف دعاء غيره بأنه شرك ، وهذا يفيدك أن دعاء غيره من الشرك ، بل هو من أعظمه ، وهذا النوع هو الذي كان يفعله المشركون في الضراء فقط ، وأما في السراء فلا يبهون به ، كما قال تعالى " وإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلا البر إذا هم يشركون " أي إذا هم يدعون غيره معه ، فسمى الله تعالى دعاء غيره شركا ، فأفاد ذلك أن دعاء غيره من الشرك ، ولهذا جعل بعض أهل العلم أن الشرك في زماننا أعظم من شرك الأولين ، لأن الأولين كانوا يعرفون الله في الضراء فيخلصون له الدعاء ، وأما مشركوا زماننا فإنهم يدعون غير الله تعالى في السراء والضراء ، بل إن إقبالهم على دعاء غير الله تعالى في الضراء أعظم وأكثر وأكبر ، فيشركون في الحالتين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ، وهذا يفيدك شدة غربة التوحيد في قلوب هذه الطائفة ، وقال تعالى " قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران " فأخبر الله تعالى أن المدعو من دونه لا ينفع ولا يضر ، وأن من دعاه فقد ارتد على عقبه ، أي كفر بعد إسلامه ، وأن هذا من إغواء الشياطين وإملائها واستهوائها وعليه فنقول :— إن من دعا غير الله تعالى فقد دعا ما لا ينفعه ولا يضره ، وقد استهوته الشياطين ، وقد كفر وارتد وخلع ربة الإسلام من عنقه ، لأنه صرف الدعاء الذي هو من خالص حق الله تعالى لغيره ، والعبادة

حقه المحض الصرف الذي لا شركة لأحد معه فيه ، وقال تعالى " ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا " فهم لا يريدون تخصيص الله تعالى بالدعاء ، فتراهم تتغير وجوههم إن وحد الله تعالى بالدعاء ، وإذا دعيت معه القبور والأنبياء والأولياء والأشجار والأحجار والكهوف والمغارات ، فهو يقبلون على ذلك فرحين مسرورين بهذا الشرك ، مقرين بأن الدعاء ليس من خصائص الله تعالى بل هو له ولعبوداتهم من دونه ، تعالى الله عما يقوله الظالمون علوا كبيرا ، سبحانه هذا بهتان عظيم ، فقلوه (وإن يشرك به) أي في دعائه ، فأفاد ذلك أن صرف الدعاء لغير الله تعالى يوصف بأنه من الشرك ، وعليه فلتعلم أن تسمية صرف الدعاء لغيره من الأولياء والأنبياء تعظيما وتجيلا وتكريما لهم ، ومعرفة لمنازل القوم ، وأنه من توقيهم وتعزيرهم ، وأنه من حقوقهم ، كل ذلك من الكذب والدجل ومن الافتراء والحيل ومن قلب الحقائق وزخرفة القول ، واستهواء الشيطان ، فحالمهم كحال الذين سموا الربا بيعا " وقالوا إنما البيع مثل الربا " وحال من سمي الخمر أم الأرواح ، وحال من سمي بيوت الدعارة بيوت الراحة والاستحمام ، وحال من سمي اختلاط الرجال بالنساء على مقاعد الدراسة وفي المنتديات تحضرا ومواكبة للعصر ، وحال من سمي غش المسلمين والاختلاس من أموالهم شطارة وذكاء ، وغير ذلك مما فيه قلب للحقائق ، وصدق الله تعالى إذ يقول " يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا " فالشرك هو الشرك وإن سمي بما سمي به ، فدعاء الملائكة والأنبياء والأولياء من دون الله تعالى هو الشرك بعينه ، وإن سمي بغير ذلك فإنما هو تلبس وزخرفة له ليختفي

قبحه وتقبله النفوس الجاهلة ، فالحذر الحذر من ذلك ، وقال تعالى " ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون " فقلوه (ومن أضل) أي لا أحد أضل من فاعل ذلك ، أي أنه بلغ في الضلال حده ومنتهاه ، وأعظم الضلال وأكبره ومنتهاه هو الشرك ، وقد بين الله تعالى في كتابه الكريم لماذا لا يدعى معه غيره ، فمن ذلك :— أن هذا الغير لا يملك شيئاً ، قال تعالى " والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير " وقال تعالى " قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة ... الآية " وحيث كان لا يكلم شيئاً فكيف يدعى ، وكيف يطلب منه جلب الخيرات ودفن المضرات ؟ أفيدعى من كان كذلك ولا يدعى الله تعالى الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما ؟ ومنها :— أن هذا المدعو من دون الله تعالى لا يسمع دعاء من دعاه ولو فرض أنه سمعه لما كان قادراً على إجابته لأنه لا يملك من الأمر من شيء ، قال تعالى " إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير " وأما الله تعالى فإنه العليم الخبير السميع البصير الذي لا يخفى عليه دعاء من دعاه ، وهو القادر القدرة الكاملة على الإجابة ، ومنها :— أن هذا المدعو من دون الله عبد مثلك ، قال تعالى " إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم " فكيف تدعو عبداً مثلك ، وتترك دعاء ربه الذي خلقه وأوجده ومنها :— أن المدعو من دون الله تعالى لا يملك لداعيه عزاً ولا نصراً ، قال تعالى " والذين تدعون من دون الله لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون " ففاقد الشيء لا يعطيه من باب أولى ، فكيف

تترك عبادة من كتب النصر له ولعباده كما قال " كتب الله لأغلبن أنا ورسلي " وقال " ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون " كيف تترك دعاء من هذه حاله وتقبل على عبادة من لا يملك لنفسه ولا لغيره عزا ولا نصرا؟ ومنها: — أن المدعو من دون الله تعالى عاجز العجز المطلق عن أن يخلق ذبابة ، فكيف بما هو فوقها في الحلقة؟ لا شك أنه عاجز عنها من باب أولى ، فكيف الله عليك تدعوا من لا يقدر عن إيجاد هذا المخلوق الصغير الحقير وتترك دعاء الخالق لكل شيء وهو اللطيف الخبير؟ أفتدعوه بالنصر والعز والعصمة والتوفيق والحفظ وجلب الخير ودفع الشر وهو عاجز عن أن يوجد ذبابة؟ ومنها: — أن هذا المدعو من دون الله تعالى لا يغني شيئا كما قال تعالى عن إبراهيم أنه قال قومه مبينا لهم فساد عبادة أصنامهم " هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون " وكان جواب قومه بالتسليم بأنهم لا يسمعون ولا ينفعون ولا يضرون ، لأنهم لم يقولوا له: — نعم هم يفعلون ذلك ، وإنما أرجعوا الأمر إلى أن هذا هو ما وجدوا عليه آباءهم فقط وبئس الحجة هذه ، وقال تعالى " قل أفأرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته " والجواب: — بالطبع لا ، فكيف بالله عليك تدعو من لا ينفعك ولا يضرك ولا يملك لك شيئا ، وتترك عبادة من بيده النفع كله والضر كله ، والمالك لكل شيء؟ ومنها: — أن هذا المدعو ليس له شرك مع الله تعالى في السموات ولا في الأرض كما قال تعالى " قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم

لهم شرك في السموات " بالطبع لا هذا ولا هذا ، وقال تعالى " وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير " وبالجملة فدعاء غير الله تعالى مخالف للمنقول الصحيح ومناقض للمعقول الصريح ، ومناف للفترة السوية التي فطر الله الناس عليها ، فالذين يصرفون الدعاء لغيره لا عقل وعهم ولا نقل ولا فطرة ، وإنما هو الهوى والتعصب للآباء وموروثاتهم الفاسدة ، فادعاء من العبادة ، والعبادة حق الله المحض ، وعليه فالدعاء حق لله تعالى ، لا يجوز صرفه لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لولي صالح ، فضلا عن غيرهم ، أيها الناس ، إن الدعاء حق لله تعالى ، فلا تدعوا مع الله أحدا أيا كان هذا الأحد ، وأيا كان هذا الدعاء ، فالملائكة لا يجوز دعاؤها من دون الله تعالى والأنبياء لا يجوز دعاؤها معه ، والأولياء لا يجوز دعاؤها معه ، وكل مخلوق سواهم لا يجوز دعاؤه مع الله تعالى لأن الدعاء عبادة والعبادة من حقوقه الخالصة جل وعلا ، وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال :— قال رسول صلى الله عليه وسلم :— " إن الدعاء هو العبادة " رواه أحمد وغيره ، وللحاكم " أفضل العبادة هو الدعاء " وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :— قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :— " من لا يدعو الله يغضب عليه " أخرجه الحاكم ، وعن عبدا لله بن مسعود رضي الله عنه قال :— قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :— " من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار " رواه البخاري ، وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال :— قال النبي صلى الله عليه وسلم :— " يا حصين كم تعبد؟ " قال :— سبعة ، ستة في الأرض وواحد في السماء ، قال " فأيهم تعد

لرغبتك ورهبتك؟" قال :— الذي في السماء ، قال " يا حصين أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك " قال:— فلما أسلم حصين قال :— يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني ، قال " قل :— اللهم ألهمني رشدي وأعدني من شر نفسي " رواه الترمذي وفيه ضعف ، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال :— مر علي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أدعو بإصبعي فقال :— " أحد أحد " وأشار بالسبابة ، أخرجه أبو داود والترمذي ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :— قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :— " يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق ، يقول :— وكلت بثلاثة ، بكل جبار عنيد وكل من دعا مع الله إلها آخر ، وبالمصورين " أخرجه أحمد والترمذي ، فالعبد لا يسأل إلا الله تعالى ، وهو القادر القدرة الكاملة على أن يجيب الدعوات ويفرج الكربات ، وقد قرر أهل العلم أن دعاء العبادة كله لله تعالى ، فصرفه لغير الله شرك أكبر مخرج عن الملة ، وأما دعاء المسألة ، فهو نوعان ، إن دعوت غير الله تعالى في أمر يقدر عليه هذا المدعو فلا بأس بذلك ، وليس دعاء المسألة حينئذ من العبادة في شيء ، كأن تسأل غيرك أن يسقيك ماء أو يتصدق عليك بصدقة ، أو يسدد عنك ديناً ، ونحو ذلك ، فإن كان ذلك المدعو قادراً على تحقيق ذلك فلا بأس ، والأكمل في أحوال الإنسان أن لا يسأل الناس شيئاً له في خاصة نفسه ، لكن لو سأهم شيئاً يقدرون عليه ، أي داخل تحت طاقتهم وقدرتهم فلا بأس بذلك ، لكن يشترط في ذلك المدعو أن يكون حياً ، وحاضراً ، وبناء على اشتراط الحياة فلا يجوز دعاء

الأموات مطلقا ، لأن الميت غير قادر على شيء ، واشتراط الحضور يخرج دعاء الغائبين عنك ، فالغائب لا يجوز دعاؤه مطلقا ، لأن الذي يدعوا الغائب إنما دعاه لأنه يعتقد أن له تصرفا خفيا في الكون ، وهذا هو الشرك الأكبر ، فالأموات والغائبون لا يجوز دعاؤهم البتة ، وعليه فدعاء الأموات شرك أكبر ، ودعاء الغائبين شرك أكبر ، والخلاصة في هذا الفرع أن دعاء العبادة ، ودعاء المسألة في الأمر الذي لا يقدر عليه إلا الله تعالى من العبادة التي لا يجوز صرفها لأحد غير الله تعالى ، فادعاء من أجل العبادات وأعظمها ، فدعاء الله وحده إيمان وتوحيد ودعاء غيره كفر وتنديد ، فمن دعا غير الله تعالى فقد جعل مع الله ندا ساواه بما هو من خصائصه جل وعلا ، وهذا هو الشرك الأكبر ، فمن اعتقد أن هناك من المخلوقين من يجي الدعوات ويقضي الحاجات فقد أثبت لغير الله ما لا يكون إلا لله تعالى ، وهذا هو حقيقة الكفر والشرك ، قال الشيخ محمد بن عبدا لوهاب رحمه الله تعالى (ومن أنواع العبادة الدعاء ، كما كان المؤمنون يدعون الله وحده ليلا ونهارا ، في الشدة والرخاء ، ولا يشك أحد أن هذا من أنواع العبادة ، فتفكر رحمك الله فيما حدث في الناس اليوم من دعاء غير الله في الشدة والرخاء ، فهذا تلحقه الشدة في البر والبحر ، فيستغيث بعبد القادر أو شمسان أو نبي من الأنبياء ، أو ولي من الأولياء أن ينجيه من هذه الشدة ، فيقال لهذا الجاهل : — إن كنت تعرف أن الإله هو المعبود وتعرف أن الدعاء من العبادة فكيف تدعو مخلوقا ميتا ، وترك الحي القيوم الرؤوف الرحيم القدير ؟) ويقول الشيخ عبدالرحمن بن حسن رحمه الله تعالى (إن الاستمداد بالأموات والغائبين

هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ، فإن الاستمداد عبادة ، والعبادة لا يجوز أن يصرف منها شيء لغير الله ، وذلك أن الاستمداد نتيجة الاعتماد ، والاعتماد هو معنى التوكل الذي هو من خصائص الإلهية وأجمعها لأعمال القلوب) وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى (وأما من يأتي قبر نبي أو صالح، أو من يعتقد فيه أنه قبر نبي أو رجل صالح وليس كذلك، ويسأله حاجته أن يزيل مرضه، أو مرض دوابه، أو يقضي دينه، أو ينتقم له من عدوه، أو يعافي نفسه وأهله ودوابه، ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، فهذا شرك صريح، يجب أن يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل. وإن قال أنا أسأله لكونه أقرب إلى الله مني ليشفع لي في هذه الأمور، لأني أتوسل إلى الله به كما يتوسل إلى السلطان بخواصه وأعوانه، فهذا من أفعال المشركين والنصارى، فإنهم يزعمون أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم شفعاء، يستشفعون بهم في مطالبهم، وكذلك أخبر الله عن المشركين أنهم قالوا " ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وقال أيضا (فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع، ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنوب، وهداية القلوب، وتفريج الكروب، وسد الفاقات، فهو كافر بإجماع المسلمين) وهذا يفيدك أن دعاء غير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى من الشرك الأكبر بالإجماع ، وقد نقل الإجماع ابن تيمية كما نقلناه عنه ، وغير واحد من أهل العلم ، وقال ابن تيمية (سؤال الميت والغائب نبيا كان أو غيره من المحرمات المنكرة باتفاق المسلمين ، لم يأمر الله به ولا رسوله ولا فعله أحد من المسلمين ، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين

المسلمين أن أحدا منهم كان يقول إذا نزلت به ترة أو عرضت له حاجة لميت :— يا سيدي فلان أنا في حسبك ، أو اقض حاجتي كما يقول بعض هؤلاء المشركين لمن يدعوهم من الموتى والغائبين ، ولا أحد من الصحابة رضي الله عنهم استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موته ، ولا بغيره من الأنبياء ، لا عند قبورهم ، ولا إذا بعدوا عنهم) وقد قرر ابن تيمية أن دعاء الصفة كفر ، فقال (وأما دعاء صفات الله وكلماته فكفر باتفاق المسلمين فهل يقول مسلم :— يا كلام الله اغفر لي وارحمي ، وأغثني ، أو أعني ، أو يا علم الله ، أو يا قدرة الله ، أو يا عزة الله ، أو يا عظمة الله ونحو ذلك) ويقول رحمه الله (إن دعاء غير الله كفر ، ولهذا لم ينقل دعاء أحد من الموتى والغائبين ، لا الأنبياء ولا غيرهم ، عن أحد من السلف وأئمة العلم ، وإنما ذكره بعض المتأخرين ممن ليس من أهل العلم المجتهدين) ويقول ابن عبدا لهادي (ولو جاء إنسان إلى سرير الميت يدعو من دون الله ويستغيث به ، كان هذا شركا محرما بإجماع المسلمين) فاحذروا أيها الناس من دعاء غير الله تعالى ، وإن كل الحجج التي يدلي بها من يجيز ذلك كلها خواء هواء ليست بشيء ، بل هي من إلقاء الشيطان ووسوسته وتليسه لإفساد العقيدة ، وإدخال الناس في سرادق الشرك ، وقد بحثنا هذه الشبه وأجبنا عنها في كتابنا (شرح الصدور في التحذير من فتنة القبور) والله ربنا أعلى وأعلم .

ومما يفرع على هذه القاعدة أيضا :— الذبح ، فإنه من جملة التعبدات التي لا يجوز صرفها لغير الله تعالى ، فالذبح بقصد التعبد والتقرب للمذبح له عبادة لا يجوز أن يقصد بها غير الله تعالى ، قال تعالى " قل إن

صلاحي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين "ولنسك هنا يراد به الذبح ، فقد صرح الله تعالى في هذه الآية أن النسك والصلاة له وحده جل وعلا ، لا شريك له ، فأفاد ذلك أن من ذبح لغير الله تعالى فقد اتخذ هذا المذبح له شريكا مع الله تعالى ، لأنه صرف شيئا من العبادات لغيره ، فكما أنه لا يصلى إلا لله وحده ، فكذلك لا ينسك إلا لله وحده ، فالصلاة والنسك عبادتان من خصائصه جل وعلا ، وقال تعالى " فصل لربك وانحر " فالذبح إن قصد به التوجه والتقرب إلى الله تعالى فهو من العبادات ، ويسمى نسكا ، لأن النسك هو العبادة والقربة ، ومما حرمه الله تعالى على هذه الأمة ما أهل لغيره وما ذبح على النصب ، فقال تعالى " حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما ذبح على النصب " وعلة تحريمه أنه مما ابتغي به غير وجه الله تعالى ، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال :— سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :— " لعن الله من ذبح لغير الله " رواه مسلم ، ولأحمد عن ابن عباس مثله ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :— قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا عقر في الإسلام " وهو ذبح معين كان أهل الجاهلية يفعلونه عند الأصنام والقبور ، وفي حديث ثابت بن الضحاك أنه نذر أن ينحر إبلا ببوانة ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال " هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ " قالوا :— لا ، قال " هل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ " قالوا :— لا ، فقال له " أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا

يملكه ابن آدم " رواه أبو داود ، فاستفسار النبي صلى الله عليه وسلم هذا دليل على أن الذبح في الأمكنة التي يذبح فيها للأوثان محرم لا يجوز ، فكيف بالذبح للوثن أصلا ؟ لا شك أنه منهي عنه من باب أولى ، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح يوم العيد كبشين ، ثم قال " إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئا وما أنا من المشركين قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين " فيدخل في ذلك أنواع كثيرة من الذبح لغير الله تعالى ، وكلها من الشرك الأكبر المخرج من الملة بالكلية ، فمن ذلك ما يذبح عند القبور ، وهو أعظمها ، فيدخل الذابح بذبيحته للمقبرة ، فيذبجها على الضريح ، وهذا شرك أكبر ، لأنه صرف العبادة لغير الله تعالى ، ومن ذلك : — الذبح الذي يأمر به الكهان والسحرة ، فإنهم يأمرون من يراجعهم للعلاج أو لغيره من المقاصد أن يذبح شيئا معيناً من بهيمة الأنعام أو غيرها مما تمليه عليه شياطينه ، ويكون الذبح غالباً بصفات معينة وشروط معينة ، ومن أهم هذه الشروط أن لا يسمى الله تعالى ، وأن يسمى عليها أسماء الشياطين الذين يخدمون الساحر ، وهذا شرك أكبر ، لا شك في ذلك ، ومن ذلك : — ما يفعل عند أقدام من يدعى أنهم من الأولياء والصالحين ، وهذا الشرك بعينه ، ومن ذلك : — ما يفعل عند قدوم الملوك تعظيماً لهم ، فتراهم يأتون بهيمة الأنعام ، و ينتظرون طلعة الملك ، فما إن يروه إلا ويقطعون الرقاب ، في طريقه ، فيمر هو عليها ، وهذا من الشرك الأكبر ، لأنه ذبح قصد به التقرب والتعظيم فهو عبادة صرفت لغير الله تعالى ، ومن ذلك : —

الذبح عند إكمال بناء البيت للجن بقصد كف شرهم عن أهل البيت ، وهذا نوع تقرب لهم بهذا الذبح فهو من الشرك ، ومن ذلك : — ما يذبح في الموالد بقصد القرية لأصحابها لإحياء موالدهم ، هذا كله من الشرك بالله تعالى ، وهذه الذبائح ميتات لا يجوز أكلها ، لأنها مما أهل لغير الله تعالى وقصد بها غيره جل وعلا ، ومنها : — الذبح للكواكب والنصب التي تنصب لها ، وهو من أعظم الشرك اتفاق العلماء ، ومنها : — ذبائح الصلح ، وهي ذبائح يذبحها بعض الأعراب لمن يريد الصلح معه ، فلا يزال يذبح حتى يرضى عنهم ويصالحهم ، فتذبح في فناء داره أو تحت قدمه حتى يرضى ، هذه ذبائح قصد بها غير وجه الله تعالى ، وأما الذبيحة بمناسبة صلح المتخاصمين ، والتي يقصد بها شكر الله تعالى على نعمة الصلح فلا بأس بها ، فالنحر نوع من أنواع العبادة التي يتعبد بها لله تعالى كالهدي والأضحية والفدية ، فلا يجوز أن يقصد بها غير الله تعالى ، وبالجملة فالدليل الصحيح الصريح أثبت أن النحر من العبادات وقد تقرر أن العبادة حق صرف محض لله تعالى لا يجوز صرفها لملك مقرب ولا لني مرسل ولا لولي صالح ، ولا لقبر ولا لشجر ولا لحجر ولا لجن ولا لأي أحد ، لأنها حق الله تعالى الذي يجب توحيد به وإخلاص القصد له فيها ، واعلم أنه مهما علت منزلة المخلوق وعلا قدره ، وكان ممن يشار له بالبنان في علمه أو منصبه أو حسبه أو غير ذلك فإنه لا يزال في دائرة المخلوق والمخلوق لا يجوز أن يقصد بشيء من التعبد ، فالأنبياء مع علو قدرهم وعلو منزلتهم عند الله تعالى فإنهم لا يجوز أن يتقرب لهم بشيء من العبادات ، والأولياء كذلك ، فليس علو رتبة المخلوق دينيا أو علميا أو

غير ذلك يسوغ لنا أن نتقرب له بالذبح ، فالمخلوق مهما كان فإنه لا يستحق أن يصرف له شيء من التعبد، فالذبح من باب التقرب من العبادات التي لا يجوز صرفها إلا لله تعالى .

ومن الفروع أيضا :— السجود والركوع ، فإنه في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم من العبادات التي لا يجوز صرفها إلا لله تعالى ، وهما من أجل العبادات وأعظم القربات ، فلا يجوز لأحد أن يركع أو يسجد لأحد من المخلوقين أيا كان هذا المخلوق ، لما تقرر عندنا في قاعدتنا أن العبادة حق محض صرف لله تعالى لا يشرك معه فيها أحد، قال تعالى " فاسجدوا لله واعبدوا " وقال تعالى " ولله يسجد ما في السموات والأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون " وهذا أسلوب حصر ، لأن المتقرر في قواعد النحو أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر وقال تعالى " ومن آياته الشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون " فجعل السجود لله من علامات إخلاص العبادة له فأفاد ذلك أن من سجد لغير الله تعالى فقد صرف العبادة لغيره ومن صرف العبادة لغيره فقد أشرك ، والسجود من العبادات التي يشترك فيها كل الكائنات كل بحسبه ، قال تعالى " ألم تر أن الله يسجد له ما في السموات وما في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب " وقد أبا المشركون السجود لله تعالى لما أمروا به فقال تعالى " وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا " والسجود لله تعالى يورث العز والفخر والسيما التي لا يورثها غيره من العبادات قال تعالى

" سيماهم في وجوههم من أثر السجود " وقد أبا اليهود أيضا وحرفوا لفظه لما قيل لهم " ادخلوا الباب سجدا " فدخلوا على أقيمتهم ، فلعنوا وأنزل الله عليهم رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ، وقال تعالى في معرض مدح المتعبدين له بأنواع العبادات " التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين " وقال تعالى " أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود " فالركوع والسجود من العبادات باتفاق العلماء ، وعن قيس بن سعد رضي الله عنه قال : — أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم فقلت : — رسول الله أحق أنم يسجد له ، قال : — فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : — إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم ، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك ، فقال : — " رأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له ؟ " قلت : — لا ، قال " فلا تفعلوا لو كنت أمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق " أخرجه أبو داود ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : — قال رجل : — يا رسول الله أحدا يلقى صديقه أينحني له ؟ قال : — " لا " قال : — فيلتزمه ويقبله ؟ قال " لا " قال : — فيصافحه ؟ قال " نعم ، إن شاء " رواه أحمد والترمذي وحسنه ، وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : — لما قدم معاذ بن جبل رضي الله عنه من الشام سجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال " ما هذا يا معاذ ؟ " قال : — يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم ، فأردت أن أفعل

ذلك بك ، قال " لا تفعل ، فإني لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها " رواه أحمد والحاكم وابن حبان ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :— قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر " رواه أحمد والبخاري ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :— قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :— " ما ينبغي لأحد أن يسجد لأحد " رواه الترمذي وابن حبان ، وعن عبداً لله بن وسعود رضي الله عنه أنه قال في قصة البعث إلى النجاشي :— بعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية إلى النجاشي ، فلما دخلا عليه سجداً له ، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ، ثم قالوا له :— إن نفرا من بني عمنا نزلوا بأرضك ، ورغبوا عنا وعن ملتنا ، قال :— فأين هم ؟ قالوا :— هم في أرضك فابعث إليهم ، فبعث إليهم ، فقال جعفر ، فقال جعفر :— أنا خطيبكم اليوم ، فاتبعوه ، فسلم ولم يسجد ، فقالوا له :— مالك لا تسجد للملك ؟ قال :— إنا لا نسجد إلا لله عز وجل ، قال :— وما ذاك ؟ فقال :— إن الله عز وجل بعث إلينا رسوله صلى الله عليه وسلم وأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عز وجل " رواه أحمد وحسنه ابن حجر وجوده ابن كثير ، وعليه :— فلا ريب أن السجود والركوع عبادتان لا يجوز فعلهما إلا لله وحده ، فمن ركع أو سجد لغير الله تعالى فقد وقع في الشرك الأكبر ، فمن أراد أن يكون عبداً لله خالصاً في عبادته له فلا يسجد لا لقبر ولا للملك ولا لسولي ولا لشمس ولا لقمر ولا لشجر ولا لحجر ولا لأي أحد ، بل لا يسجد إلا لله تعالى وحده لا شريك له ، وقد انتشر في حقبة زمننا السجود لغير

الله تعالى ، فإن عباد القبور في مختلف الدول الإسلامية والعربية يجعلون السجود للقبر من أهم علامات حب الأولياء وتعظيم قدرهم واحترام جنابهم ، فتراهم حول القبر سجدا ركعا يبتغون فضلا من صاحب القبر ورضوانا ، كما تراه عند الصوفية في كبارهم ومريديهم ، فإنه إذا دخل بعض المريدين على شيخه ينحني له انحناء المعظم الخاضع الخاشع المتذلل ولربما وصل في انحنائه إلى الأرض ، قال القرطبي رحمه الله تعالى (وهذا السجود المنهي عنه قد اتخذه جهال المتصوفة عادة في سماعهم ، وعن دخولهم على مشايخهم ، واستغفارهم ، فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام ، لجهله سواء كان للقبلة أم غيرها جهالة منه ، ضل سعيهم وخاب عملهم) وقال ابن القيم رحمه الله تعالى (ومن أنواع الشرك سجود المرید للشيخ فإنه شرك من الساجد والمسجود له ، والعجب أنهم يقولون :— ليس هذا سجود ، وإنما هو وضع الرأس قدام الشيخ احتراماً وتواضعاً ، فيقال لهؤلاء :— ولو سميتموه ما سميتموه ، فحقيقة السجود وضع الرأس لمن يسجد له ، وكذلك السجود للصنم وللشمس وللنجم وللحجر كله وضع الرأس قدامه ، ومن أنواعه ركوع المتعلمين بعضهم لبعض عند الملاقاة ، وهذا سجود في اللغة ، وبه فسر قوله تعالى " ادخلوا الباب سجدا " أي منحنين ، وإلا فلا يمكن الدخول بالجبهة على الأرض ، ومنه قول العرب :— سجدت الأشجار ، إذا أمالتها الريح) ولا تزال شياطين الجن والإنس تزين للناس السجود لغير الله تعالى ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى (جاء شيوخ الضلال والمزاحمون للربوبية فزينوا لمريديهم حلق رؤوسهم لهم ، كما زينوا لهم السجود لهم ،

وسمونه بغير اسمه ، وقالوا : — هو وضع الرأس بين يدي الشيخ ، ولعمر الله إن السجود لله تعالى هو وضع الرأس بين يديه سبحانه) وكل هذا في سجود التعبد والتقرب والتعظيم ، فهذا النوع من العبادات التي لا يجوز صرفها لغير الله تعالى ، فالسجود كله عبادة ، ولا يجوز لأحد أن يسجد لأحد ، مهما كان هذا الأحد ، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى (وأما تقبيل الأرض ووضع الرأس ونحو ذلك مما فيه السجود مما يفعل قدام بعض الشيوخ ، وبعض الملوك ، فلا يجوز ، بل لا يجوز الانحناء كالركوع أيضا ، كما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : — الرجل منا يلقي أحياه أينحني له ؟ قال " لا " ... الحديث ، وأما فعل ذلك تدينا وتقربا فهذا من أعظم المنكرات ، ومن اعتقد مثل هذا قربة وتدينا فهو ضال مفتر ، بل يبين له أن هذا ليس بدين ولا قربة ، فإن أصر على ذلك استتيب ، فإن تاب وإلا قتل) وقال ابن تيمية أيضا (وأما وضع الرأس عند الكبراء من الشيوخ وغيرهم ، أو تقبيل الأرض ونحو ذلك ، فإنه مما لا نزاع فيه بين الأئمة في النهي عنه ، بل مجرد الانحناء بالظهر لغير الله عز وجل منهى عنه) وقال أبو العباس أيضا (وحجرة نبينا صلى الله عليه وسلم وحجرة الخليل وغيرهما من المدافن ، التي فيها نبي أو رجل صالح لا يستحب تقبيلها ولا التمسح بها باتفاق الأئمة ، بل منهى عن ذلك كله ، وأما السجود لذلك فهو كفر) وقال ابن القيم رحمه الله تعالى (ومن خصائص الإلهية السجود فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق بالخالق) أي وهو نوع من الكفر ، وقال ابن تيمية (فالإله هو الذي يأله القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك ، ومن

المعلوم أن الذبح والنذر والسجود والركوع والطواف ... عبادات تجمع بين الخضوع والخوف والإجلال فإذا صرفت هذه العبادات لله وحده فهذا إيمان وتوحيد ، وإذا صرفت لغيره فهذا كفر وتنديد) وعليه : — فالسجود لغير الله تعالى شرك يناقض توحيد العبادة ، فإذا انضم إليه اعتقاد الربوبية فيمن سجد له فقد زاد على ذلك أنه أشركه مع الله تعالى في الربوبية أيضا ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، واحذر ممن يقول : — إننا وإن سجدنا للكبار تحية وإكراما ، إلا أننا لا نتعبد لهم بالسجود ، فقل : — السجود لغير الله تعالى لا يجوز مطلقا في هذه الشريعة ، لما قدمناه من الأدلة والنقول ، فليس في شرع النبي صلى الله عليه وسلم شيء اسمه : — سجود تحية وإكرام ، وهو وإن كان موجودا في شريعة نبي الله يوسف ، إلا أنه قد نسخ في شرعنا ، وقد تقرر أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا بالاتفاق إن ورد نسخه في شرعنا ، وقد رأيت فيما رأيت صورة فيها بعض الناس قد سجد للقبر ، كما يسجد لله تعالى في الصلاة ، فقف شعر رأسي من قبح هذا الأمر ، وفداحة كفر هذا الساجد ، وكيف سيقابل الله تعالى يوم القيامة إن لم يتداركه برحمته قبل أن يموت ، فيا أيها الناس : — اعلموا أن السجود عبادة ، والعبادة حق محض صرف لله تعالى لا يجوز صرفها لأحد من الخلق ، أيا كان هذا المخلوق ، ومن سجد لغير الله تعالى سجود تعبد وتقرب فقد أشرك وكفر وخلع ربقة الإسلام من عنقه . والله أسأل أن يتوب على من يفعل ذلك قبل الموت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ومما يتفرع على هذه القاعدة أيضا: — الاستغاثة ، وهي دعاء الاضطرار ، وهي طلب الغوث ، والكلام فيها قريب من الكلام في الدعاء ، لأنها من الدعاء ، وقد قسمها أهل العلم إلى أقسام ، الأول: — الاستغاثة بالله عز وجل ، وهذا من أفضل الأعمال وأكملها ، وهو دأب الرسل وأتباعهم كما قال تعالى " إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين " وقد استغاث النبي صلى الله عليه وسلم بربه يوم بدر رافعا يديه وما زال يدعو ويستنصر بربه ويستغيث حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، الثاني: — الاستغاثة بالأموات أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين على الإغاثة ، فهذا شرك ، لأنه لا يفعله إلا من يعتقد أن هؤلاء تصرفا خفيا في الكون ، فيجعل لهم حظا من الربوبية قال تعالى " أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء " الثالث: — الاستغاثة بالأحياء الحاضرين القادرين على الإغاثة ، فهذا جائز لا بأس به ، وليست الاستغاثة على هذا المعنى من العبادة في شيء ، قال تعالى " فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه " وعليه: — فالأموات لا يجوز الاستغاثة بهم مطلقا ، وأما الحي فلا يخلو: — إما أن يكون حاضرا قادرا وإما ، لا ، فإن كان حيا حاضرا قادرا فلا بأس بالاستغاثة به فيما يقدر عليه فقط ، وأما الغائب أو العاجز فلا يستغاث به مطلقا ، ومن عجائب ما سمعت ورأيت أني رأيت رجلا من بعض البلاد المجاورة في مكة ، وهو يطوف ويقول بصوت يسمعه القريب منه: — يا علي ، يا حسين ، ويكرر ذلك ، وهو يبكي ، فكلمته في ذلك ولكنه لم يأبه بكلامي وانصرف عني وهو يردد ذلك ، فانظر حماك الله من السوء

والخذلان ، في مكة وهو يطوف ، وليس له من ذلك إلا الغربة والتعب ، لأن التوحيد أساس قبول العمل ، فلا يقبل الله من العمل إلا ما صاحبه توحيد صحيح ، وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال : — كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : — " يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف " رواه الترمذي ، فالغوث والمدد لا يطلب إلا من الله تعالى ، وفي الحديث " إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله تعالى " فدعاء الموتى والاستغاثة بهم في الملمات والشدائد وتفريج الكربات ، كل ذلك من الشرك الأكبر المنافي لأصل الدين ، ولا عذر لمن فعله بالجهل ، فإن هذا الأمر من كبار مسائل الاعتقاد التي لا يعذر فيها بالجهل ، وقال تعالى " ادعوا ربكم تضرعاً وخفية " بل إن الاستغاثة بغيره جل وعلا معلوم حرمتها من الدين بالضرورة ، قال في الإقناع (من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم كفر إجماعاً ، لأن هذا كفعل عابدي الأصنام قائلين " ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " وقال أبو العباس ابن تيمية) وإن أراد بالواسطة أنه لا بد من واسطة يتخذها العباد بينهم وبين الله في جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم ، يسألونه ذلك ويرجعون إليه فهذا من أعظم الشرك الذي كفر

الله به المشركون ، حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء ، يجتلبون بهم المنافع ، ويدفعون بهم المضار لكون الشفاعة لم يأذن بها الله تعالى) والحقيقة أن استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق ، وكاستغاثة المسجون بالمسجون ، كما قاله بعض السابقين ، فالمدد والغوث والاستنصار والرهب والرغب لا تطلب هذه الأمور إلا من الله تعالى ، وهذا منهج الصحابة والسلف الصالح ، فلا يعرف عن أحدهم حرف واحد في الاستغاثة بغير الله تعالى ، قال أبو العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى (بل نقول : — سؤال الميت والغائب نبيا كان أو غيره ، من المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين ، لم يأمر الله به ولا رسوله ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا استحسنته أحد من أئمة المسلمين وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين المسلمين فإن أحدا منهم ما كان يقول إذا نزلت به ترة — أو عرضت له حاجة — لميت : — يا سيدي فلان أنا في حسبك ، أو اقض حاجتي ، كما يقول بعض هؤلاء المشركين لمن يدعوهم من الموتى والغائبين ، ولا أحد من الصحابة استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موته ولا بغيره من الأنبياء لا عند قبورهم ولا إذا بعدوا عنها ، وقد كانوا يقفون تلك الواقف العظام في مقابلة المشركين في القتال ، ويشتد البأس بهم ويظنون الظنون ، ومع هذا لم يستغث أحد منهم بنبي ولا غيره المخلوقين ، بل ولا أقسموا بمخلوق على الله أصلا ولا كانوا يقصدون الدعاء عند قبور الأنبياء ولا الصلاة عندها ، وقد بين أبو العباس رحمه الله تعالى أن الشياطين لها دور كبير في إضلال الناس في ذلك ، فقال (وذلك أن من

الناس الذين يستغيثون بغائب أو ميت ، تتمثل له الشياطين ، وربما كانت على صورة ذلك الغائب ، وربما كلمته ، وربما قضت له أحيانا بعض حوائجه ، كما تفعل شياطين الأصنام ، وهذا مما جرى لغير واحد فينبغي أن يعرف) ومن باب الكمال في الطرح أرى أنه من المناسب جدا أن نذكر بعض الشبه التي يستدل بها المشركون على جواز الاستغاثة بغير الله تعالى مع الجواب عنها ، فأقول وبالله تعالى التوفيق : —

(الأولى) أن آدم عليه السلام قد استشفع على الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه لما أكل من الشجرة وحصل ما حصل قال : — أسالك يارب بحق محمد إلا غفرت لي ، فقال : — آدم كيف عرفت محمدا ولم أخلقه بعد ؟ قال : — لما نفخت في الروح رفعت رأسي فرأيت على قائم العرش لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقلت : — إنك لم تضيف لاسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال : — صدقت يا آدم إنه لأحب خلقي إلي ، وإذ سألتني به فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك ، وهو آخر الأنبياء من ذريتك " ودائما ما يدندنون حول هذا الحديث ، ويحتجون به في غالب محافلهم ، وأقول : — هذا الحديث قد أخرجه الحاكم في المستدرک من طريق أبي الحارث عبدالله بن مسلم الفهري ، قال : — حدثنا إسماعيل بن مسلمة ، قال : — أنبأنا عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر (به) ومن عجائب الحاكم أنه قال (صحيح الإسناد) ولكن تعقبه الذهبي رحمه الله تعالى وقال (بل موضوع) فله دره ، ورواه البيهقي في الدلائل وقال (تفرد به عبدالرحمن بن زيد بن أسلم ، وهو ضعيف)

ورواه الطبراني في المعجم ، وغيرهم كلهم من طريق ابن أسلم المذكور ، وقد صححه السبكي المبتدع متابعة لتصحيح الحاكم ، وتابعهم المخرف المنحرف عن جادة الحق عنادا وكبرا حسن المالكي ، في مفاهيم يجب أن تصحح ، ولا يزال أهل البدع يتلقفون هذا الخبر خالفا عن سالف ، ويغضون الطرف عن علته لأنه يتوافق من ما يريدون من الاستغائة بالمخلوقين ، والقاعدة عنهم أن ما يخدم مصالحهم ويؤيد عقائدهم الباطلة فهو الصحيح المتفق على صحته والذي يجب أن يتلقاه الكل بالقبول والتسليم ، وإن كان من أوضاع الموضوعات ، وما يخالف أهواءهم وينسف عقائدهم فإنه الباطل سندا أو معنى وإن كان من أكبر المتواترات ، لأن الهوى هو قائدهم ، والعصية الجاهلية هي عمدتهم ، فلا عقل ولا نقل يهديهم لسبل الرشاد ويأخذ بنواصبيهم للبر والتقوى ، والمقصود أنهم اعتمدوا على هذا الحديث وهو في الحق والنقد والإنصاف حديث موضوع باطل ، فإن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف باتفاق النقاد فقد ضعفه أحمد بن حنبل ، وأبو زرعة ، وأبو حاتم البستي ، والنسائي ، والدارقطني ، وغيرهم ، بل الحاكم نفسه قال كما في المدخل :—(عبدالرحمن بن زيد بن أسلم روى عن أبيه أحاديث موضوعة لا يخفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه) فعبد الرحمن بن أسلم هذا ضعيف جدا ، وأما من دونه من الرواة فإنهم مجاهيل لا يعرفون ، أي أن الإسناد إلى عبدالرحمن كلهم فيهم جهالة ، ويزاد على ذلك أن الحديث فيه اضطراب ، لأن عبدالرحمن تارة يرويه مرفوعا وتارة موقوفا ، وهذا لا يحتل من هذا الرجل لأنه في الضعف كما رأيت ، وقال الهيثمي

في الجمع (وفيه من لم أعرفهم) وقال الألباني عن هذا الإسناد (وهذا سند مظلم ، فإن كل من دون عبدالرحمن لا أعرفهم) ووصف الذهبي هذا الحديث بأنه (موضوع) وبأنه (باطل) وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى (إن هذا ليس له أصل ، ولا تقوم به الحجة ، ولا إسناد لذلك) والخلاصة أن الحديث موضوع . وقد تقرر أن الأحكام الشرعية تفتقر في ثبوتها للأدلة الصحيحة الصريحة ، وتالله لو أن الحديث في إثبات الصفات لأجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم ولردوه من أساسه أو قالوا :— هذا خبر آحاد والعقائد لا تثبت بخبر الآحاد ، ولكن هنا لا ينكرون لأنه يتوافق مع أهوائهم العفنة ، وعقيدتهم المنتنة ، وأما تصحيح الحاكم فلا يعول عيه ، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى (ولهذا كان أهل العلم لا يعتمدون على تصحيح الحاكم) بل إن الحديث هذا غلط حتى في متنه ، وبيان ذلك لأن الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه فتاب عليه بها ، وإن اختلف فيها أهل التفسير إلا أن أحدا منهم لم يقل إنها عين الكلمات الواردة في هذا الحديث ، فقد ذكر ابن جرير الطبري — وهو أعلم أهل التفسير بالأقوال — سبعة أقوال لم يذكر من بينهن هذه الكلمات المذكورة ، ولذلك قال ابن تيمية (فلو كان آدم قد قال هذا ، لكانت أمة محمد أحق به منه ، بل لكان الأنبياء من ذرية آدم أحق بها منه ، وقد علم كل عالم بالآثار أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لم يأمر أمته به ، ولا نقل عن أحد من الصحابة الأخيار ، ولا نقله أحد من العلماء الأبرار ، فعلم أنه من أكاذيب أهل الوضع والاختلاق ، الذين وضعوا من الأحاديث أكثر مما بأيدي المسلمين من الصحيح ، لكن الله فرق بين الحق

والباطل بأهل النقد العارفين بالنقل ، علماء الجرح والتعديل) وقال عنه أيضا (ومثل هذا لا يجوز أن يبنى عليه الشريعة ، ولا يحتج به في الدين باتفاق المسلمين ، فإن هذا من جنس الإسرائيليات ونحوها والتي لا يعلم صحتها إلا بنقل ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذه لو نقلها مثل كعب الأخبار ووهب بن منبه وأمثالهما ممن ينقل أخبار المبتدأ وقصص المتقدمين عن أهل الكتاب لم يجوز أن يحتج بها في دين المسلمين باتفاق المسلمين ، فكيف إذا نقلها من لا ينقلها لا عن أهل الكتاب ولا عن ثقات علماء المسلمين ، بل ينقلها عن من هو عند المسلمين مجروح ضعيف ، لا يحتج بحديثه ، واضطرب اضطرابا يعرف به أنه لم يحفظ ذلك) ومما يدل على وضعه أيضا أنه قال فيه (ولولا محمد ما خلقتك) وهذا باطل لأن الله تعالى خلق الجن والإنس لعبادته كما قال تعالى " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " فالحق أن هذا الحديث حديث كذب موضوع يجب اطراحه وإخراجه عن كتب الهداية ، ومكانه في كتب الموضوعات . (الشبهة الثانية) أن الله تعالى أعطى الأولياء والأنبياء من فضله وجعل لهم من المتزلة والمكانة ملم يجعلها لغيرهم ومن ذلك أنه أمكنهم من إغاثة من استغاث بهم ، وأقول ردا على ذلك : — أما متزلة أنبياء الله تعالى وأوليائه فلا تخفى على ذي فهم سليم وعقل ثابت ، فإن من له أدنى معرفة بالأدلة يعرف ذلك ، فهم أرفع بني آدم متزلة عند الله تعالى ، الأنبياء ثم الأولياء ، ونحن نؤمن بما لهم من الفضائل والمراتب العالية ، ولكن من الذي قال لك إن من جملة ما أكرمهم الله به أنه أعطاهم القدرة على إغاثة الملهوف والمكروب ؟ من أتيت بهذا ؟ أهو

شيء ورد به قرآن أو سنة صحيحة؟ هات برهانك إن كنت من الصادقين ، فإن إثبات ذلك لهم من الأحكام الشرعية التي لا بد في إثباتها من دليل صحيح صريح ، فإن أدلة القرآن والسنة ليس فيها شيء من ذلك ، بل فيها الرد على من اعتقد ذلك ، كما قال تعالى " قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير " وقال الله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم " قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله " وفي الحديث " لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ... الحديث بتمامه " فإذا كان هذا حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أفضل الأنبياء على الإطلاق فكيف بحال غيره ممن هو دونه؟ ونقول أيضا : — أن الصحابة رضوان الله عليهم أعرف الناس بما للنبي صلى الله عليه وسلم من الحقوق فلو كانوا يعلمون أنه ممن يستغاث به عند الضراء لفعلوه ، لكن لم يثبت عن واحد منهم أنه فعل شيئا من ذلك ، ولا رخص فيه ، مع ما مر عليهم من البلايا والكروب والمصائب ومع ذلك لم يأت أحدهم إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم واستغاث به من دون الله تعالى ، أفأنت يا هذا أعرف منهم بالشرع؟ وأعرف منهم بما للنبي من الحقوق؟ تالله إن هي إلا شبهة أوحى لك بها الشيطان فظننت أنها من تعظيم جناب الأنبياء والأولياء ، بل الأنبياء إنما جاؤوا لدعوة الناس إلى إفراد الله تعالى بالعبادة ،

والاستغاثة بالله من العبادة التي دعوا الناس لتوحيد الله تعالى بها فكيف يكون من دينهم إقرار الشرك وقد بعثوا أصلاً لتحذير الأمم منه؟ سبحانه هذا بهتان عظيم، وليس في نفي هذا عن الأنبياء تنقص لهم، بل الذي يتنقصهم هو الذي يبدل دينهم ويؤذيهم بنسبة ما هو حق لله لهم، ويحرف الكلم من بعد مواضعه، ويتقول عليهم ما لم يقولوه، ويدخل في شريعتهم ما ليس منها، (الشبهة الثالثة) حكاية العتيبي الذي جاء إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم واستغاث به وقال بيتين من الشعر فقضيت حاجته، وهذه الحكاية لا إسناده لها، بل هي كذب مختلق، لأنها مخالفة لأصل الدين، وما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، ولا يمكن أن تثبت بحال، وقد انفتح بها باب شر كثير، ورحم الله ابن كثير لما ذكرها في تفسيره ولم ينبه على كذبها، فدعك منها فإنها مما لا يعتبر به أهل الألباب، وقد ذكرنا في كتابنا (شرح الصدور في التحذير من فتنة القبور) غالب الشبه التي يستدل بها من يعتقد ذلك، فراجع إن شئت، ففيه خير كثير بحمد الله وفضله وحسن توفيقه ومنته، والخلاصة: — أنه لا يلجأ في الشدائد إلا لله تعالى فلا يفرج الكروب ولا يغيث اللهفات إلا هو جل وعلا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: — حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له "إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسنا الله ونعم الوكيل" رواه البخاري، وعن أسماء ابنة عميس أنها قالت: — علمني رسول الله كلمات أقولها عند الكرب "الله الله ربي لا أشرك به شيئاً" رواه ابن ماجه، وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا أصاب أحدكم هم أو لأواء فليقل :— الله ، الله ربي لا أشرك به شيئاً " رواه الطبراني ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو عند الكرب " لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش العظيم " متفق عليه ، وفيهما لم دخل عليه الأعراي يوم الجمعة فقال :— يا رسول الله جاع العيال وهلكت الأنفس وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا ، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه فقال " اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا " فأغاثهم من لحظتهم مغيث اللهفات وقاضي الحاجات جل وعلا ، فوالله مسكين ، مسكين ، مسكين من يستغيث بقبر أو شجر أو من لا ينفع ولا يضر ، لقد خاب سعيهم ، وضل عملهم ، نعوذ بالله من الخذلان في الدنيا والآخرة .

ومما يتفرع على هذه القاعدة أيضا :— التوكل ، وهو اعتماد القلب على الرب جل وعلا وتفويض الأمور إليه سبحانه في تحصيل المحبوب المرغوب ، والكفاية من المكروه المرهوب ، وقد قسمه أهل العلم إلى أقسام :— الأول :— التوكل على الله تعالى ، وهو من تمام الإيمان وعلامة صدقه ، وهو واجب لا يتم الإيمان إلا به ، كما قال تعالى ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين " وقال تعالى " وعلى الله فليتوكل المتوكلون " والله تعالى كاف من توكل عليه ، قال تعالى " ومن يتوكل على الله فهو حسبه " ، الثاني :— توكل السر ، بأن يعتمد على ميت في جلب منفعة أو دفع مضرة ، فهذا شرك أكبر ، لأنه لا يقع إلا من يعتقد أن لهذا الميت تصرفا خفيا في الكون ، ولا فرق في ذلك بين أن يكون التوكل عليه نبيا

أو وليا أو طاغوتا عدوا لله تعالى ، الثالث : — التوكل على الغير فيما يتصرف فيه الغير ، مع الشعور بعلو مرتبته وانحطاط مرتبة المتوكل ، مثل أن يعتمد عليه في تحصيل المعاش ونحوه ، فهذا من الشرك الأصغر لقوة تعلق القلب به وقوة الاعتماد عليه ، أما لو اعتمد عليه على أنه مجرد سبب وأن الله تعالى هو الذي قدر ذلك على يده فإن ذلك لا بأس به ، إذا كان للمتوكل عليه أثر صحيح في حصول المقصود ، الرابع : — التوكل على الغير فيما يتصرف فيه هذا الغير بحيث ينيب غيره في أمر تجوز فيه النيابة فهذا لا بأس به ، وهو بمعنى الوكالة ، وأدلة الجواز واضحة من الكتاب والسنة ، فالتوكل عبادة لأنه من عمل القلب ، فلا يتوكل إلا على الله وحده في حصول كل مطلوب ، ولكن الله تعالى يجري على يد بعض العباد الرزق فيوصله لمن يريد من عباده جل وعلى ، فالله هو الذي بيده وحده مفتاح الأمور وزمامها ، فلا يكون في كونه إلا ما يريد جل وعلا ، قال تعالى " الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم " وفي الحديث " اللهم لك أسلمت وعليك توكلت " وفي الحديث " لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماسا وتروح بطانا " واعلم رحمك الله تعالى أن التوكل الشرعي لا ينافي الأخذ بالأسباب المشروعة ، بل الأخذ بها من التوكل ، وفي الحديث " اعقلها وتوكل " وفي الحديث " دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وعلى رأسه المغفر " وهو سيد المتوكلين ، وقال تعالى " فإن تولوا فقل حسبي الله ، لا

إله إلا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم " وقال تعالى " إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليوكل المتوكلون " والتوكل على الله تعالى له من الفوائد ما لا يحصى ، فمن ذلك : — أن التوكل على الله يحقق به العبد مرتبة عظيمة مهمة من مراتب العبودية ، ومنها : — أن التوكل عليه وحده سبب للكفاية والحفظ ، قال تعالى " ومن يتوكل على الله فهو حسبه " وقال تعالى بعد ذكر أمر النجوى وأنها من الشيطان قال " إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين ءآمنوا وليس بضارهم شيئا إلا يأذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون " وإذا حمى الوطيس بين الأنبياء وأممهم وحصل التهديد من الأمم بالقتل والطرده والرحم ، فإن الأنبياء يفزعون إلى التوكل على الله تعالى لأنه من أعظم ما يستكفي به العبد من كيد عدوه ، قال تعالى عن لسان جمع من رسله بعد أن هددهم قومهم " وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا " وقال هود لقومه بعد أن قالوا له " إن نقول إلا اعتراك بعض آهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدون جميعا ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم " وقال نوح لقومه " واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون " وقال لنبية صلى الله عليه وسلم " ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا " ومنها : — أن التوكل على الله وحده من أعظم أسباب النصر على

العدو ، كما قال تعالى " إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون " فالنصر للمتوكلين على الله تعالى ، سواء النصر بالسيف والسنان أو الحججة والبرهان كما قال تعالى " وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون " ومنها :— أن التوكل على الله وحده من أعظم الأسباب التي بها يعان العبد على الصبر على الضراء ، كما قال تعالى عن الرسل " ولنصبر ن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون " ولذلك جمع الله تعالى بينهما فقال " الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون " ومنها :— أن التوكل من الأسباب التي بها يرزق العبد كمال العزيمة على العمل ، والتوفيق في حصول المراد وبلوغ الأرب ، كما قال تعالى " فإذا عزمتم فتوكل على الله " ومنها :— أن عبادة الله تعالى لا تنال ولا يستطيعها العبد إلا بالتوكل على الله وحده كما قال تعالى " إياك نعبد وإياك نستعين " والتوكل من الاستعانة ، ويوضح ذلك قوله تعالى " فاعبده وتوكل عليه " ومنها :— أن التوكل قد أمر به النبي صلى الله وسلم في سائر أحواله ، فقال في السلم مع العدو " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله " وفي العبادة قال " فاعبده وتوكل عليه " وفي مقام الدعوة والصدع بالحق قال " فتوكل على الله إنك على الحق المبين " وفي مقام العزم بدع المشاورة في الأمر قال " فإذا عزمتم فتوكل على الله " وفي مقام الكف عن الكفار وأهل النفاق بعد الدعوة وعدم الاستجابة قال " ودع أذاهم وتوكل على الله " وفي مقام العبادة الجماعية قال " وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في

الساجدين " وغير ذلك كثير ، مما يفيدك إفادة قطعية أن التوكل من مراتب العبادة العالية ، فكيف بعد ذلك يصرف لميت أو لقبر لا ينفع ولا يضر ، أو كيف يتوكل العاقل على شجر أو حجر أو غائب ؟ ثم يأتي ويجادل في جواز التوكل عليه ، تالله إنه العقل البشري إذا لم يرد الله له الهداية والنور ، فلا يزال يتخبط في ظلمات الجهل والعمية ، فنسأل الله تعالى أن ينير قلوبنا وعقولنا بنور التوحيد الخالص والعمل الصالح .

ومما يفرع عليها أيضا : — الخوف ، وقد قسمه أهل العلم إلى أقسام ، الأول : — خوف طبيعي كخوف الإنسان من السبع والنار والغرق وهذا لا يلام عليه العبد ، قال تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام " فأصبح في المدينة خائفا يترقب " وقال تعالى عنه " ففرت منكم لما خفتكم " الثاني : — الخوف الطبيعي الذي يحمل صاحبه على ترك واجب أو الوقوع في المحرم ، فهو حرام ، لأن ما كان سببا لترك الواجبات أو الوقوع في المحرمات فهو حرام ، وعلى ذلك قوله تعالى " أتخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين " وقال تعالى " فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين " الرابع : — الخوف الذي يحمل صاحبه على ترك المعاصي والتزام الواجبات ، فهو خوف مأمور به أمر وجوب ، وينافيه الأمن من مكر الله الحامل على الجرأة على المعصية ، الخامس : — الخوف الذي يحمل صاحبه على القنوط من روح الله تعالى ورحمته ، فهو خوف محرم ، من أشد المحرمات ، قال تعالى " إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون " وقال تعالى " قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون " فلا يجوز للعبد أن يأمن أمنا يحمله على الوقوع في المعصية ، ولا يجوز له أن

يخاف خوفاً يحمله على اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى ، السادس :— خوف التعبد ، وهذا من جملة العبادات التي لا يجوز صرفها إلا لله تعالى ، وصرفه لغير الله شرك أكبر ، السابع :— خوف السر ، كأن يخاف من صاحب القبر ، أو يخاف ولياً بعيداً عنه لا يؤثر فيه ، لكنه يخافه مخافة سر ، فهذا أيضاً من الشرك الأكبر ، كما قال تعالى عن قوم هود أنهم قالوا له " إن نقول إلا اعتراك بعض آهتنا بسوء " وقال تعالى عن خليله إبراهيم لما هدده قومه بأهنتهم " وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً " وقال تعالى عنه " ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً " وهذا دأب الكفار والمنافقين وأهل الإرجاف ، أنهم يخوفون المؤمنين منه هو دون الله تعالى كما قال تعالى " ويخوفونك بالذين من دونه " ومما يفيد أن الخوف من العبادة ، أن الله تعالى أمر به فقال " تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا " وقال تعالى " واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفةً ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين " ولا يأمر الله تعالى ولا يمدح من الأقوال والأعمال والاعتقادات إلا ما هو عبادة ، قال تعالى " فالله أحق أن تخشوه " وقال " وخافون إن كنتم مؤمنين " بل علق عليه الإيمان هنا ، فدل على أنه العبادات المهمة ، والخوف من الله وحده له ثمرات جليلة ، منها دخول الجنة ، قال تعالى " ولمن خاف مقام ربه جنتان " وقال تعالى " وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى " ومنها :— الانتفاع بالوحي والآداب والتوفيق للفهم والعمل ، قال تعالى " إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب

الآخرة " وقال تعالى " سيذكر من يخشى " وقال تعالى " إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب " وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم " ومنها :— الاستعداد ليوم المعاد والوقاية من أهواله ، قال تعالى " إنا نخاف من رنا يوما عبوسا قمطريرا فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا " وقال تعالى " يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون " وقال تعالى " والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب " وقال تعالى " أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه " وقال تعالى " يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شر مستطيرا " ومنها :— التمكين في الأرض وتبديل الخوف أمنا في الدنيا وعند الموت وفي الآخرة ، قال تعالى " ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد " وقال تعالى " وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا " وقال تعالى " تتترل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون " وقال تعالى " إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا يحزنون " الانكفاف عن المعاصي ، قال تعالى " إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير " وقال تعالى " إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم " وقال تعالى عن النبي من ابني آدم " لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين " فخوفه من الله تعالى منعه من قتل أخيه ، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال :— أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بذات الرقاع قال :— كنا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى

الله عليه وسلم ، فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله معلق بشجرة ، فأخذ سيف نبي الله صلى الله عليه وسلم فاخترطه ، فقال لرسول الله : — أتخافني ؟ قال " لا " فقال : — فمن يمنعك مني ؟ قال " الله يمنعني منك " قال : — فتهدده أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فأغمد السيف وعلقه . متفق عليه ، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اقتلوا الحيات كلهن فمن خاف ثأرهن فليس مني " وفي الحديث الآخر — أظنه حديث ابن عباس رضي الله عنهما — " من ترك الحيات مخافة طلبهن فليس منا " وبالجملة : — فالخوف من العبادات التي يجب توحيد الله تعالى بها ، ومن صرف خوف التعبد لغيره جل وعلا فقد وقع في الشرك الأكبر .

ومما يفرع على هذه القاعدة أيضا : — الرجاء ، فهو المن العبادات ، وهو طمع الإنسان في أمر قريب المنال ، وهو من العبادات ، لأن الرجاء المتضمن للذل والخضوع لا يكون إلا لله تعالى وصرفه لغير الله تعالى من الشرك ، ويكون من الشرك الأكبر إذا كان في أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، وأما رجاء العبد في أمر يقدر عليه باعتبار أن الله تعالى وضعه من أسباب حصول المراد ، بلا ذل له ولا خضوع فلا بأس به وعليه : — فالرجاء الصادر من عباد القبور لأصحابها من الشرك الأكبر لأنه لم يرجه في تحقيق مراده إلا لاعتقاده أن له تصرفا خفيا في الكون ، والرجاء الصادر من عباد الأوثان لأوثانهم من الشرك الأكبر لأن هذه الأوثان عاجزة عن تحقيق مرادهم ، فهم إنما عبدوها يرجون منها أن تشفع لهم عند الله تعالى وتقربهم إليه زلفى ، وهي لا تقدر على ذلك ، فرجاء الأصنام والأشجار

والأحجار من الشرك الأكبر ، بل وقد يكون الرجاء فيما يقدر عليه العبد من الشرك الأكبر بحسب ما يقوم في قلب الراجي من الذل والخضوع للمرجو ، فالله هو المرجو وحده لا شريك له ، فرجاء الغير مشروط بشرطين : — أن لا يصاحبه ذل ولا خضوع ، وأن يكون فيما يقدر عليه ، وقد سمعت رجلا يقول لآخر : — أرجوك بكل معاني الرجاء في قلبي ، وهذا لا يجوز لأن رجاء التعبد والذل والاستكانة والخضوع والتقرب لا يكون إلا لله تعالى ، فعباد الأوثان يرجون من أوثانهم النصر والعز والشفاعة والحفظ والتمكين وكل هذا من الشرك الأكبر ، ومن صورته أيضا رجاء المرید الصوفي لشيخه الذي يتعلم على يديه ، فإن المرید يرجو من شيخه ما لا يجوز رجاءه إلا من الله تعالى ، ومن صورته أيضا رجاء من يأتي إلى الكهان والسحرة في استكشاف ما هو من الغيب ، في معرفة الرزق والحال في المستقبل ، فإنه يأتيهم وكله رجاء في أن يكشفوا له ما هو من الغيب الذي سيأتيه ، وهذا هو عين الشرك الأكبر ، ولا شك في ذلك ، ومن صورته أيضا الرجاء العظيم الذي يكون من أتباع الأمراء والملوك والمصاحبين لهم ، فإنهم يرجون منهم الحفظ والسلامة والغنى والنصر وتيسير الأمور رجاء مصحوبا بكامل الذل والخضوع ، حتى إن التابع لهم في كثير الأحيان يضيف عليهم من الصفات ما لا يصح إطلاقه على مخلوق ، كما هو واضح في كثير من أشعارهم وحركاتهم إذا كانوا يحضرتهم ، وهذا لا يجوز البتة ، وقد تعدى ببعض الأتباع الحال حتى صار يوالي من يوالي أميره وإن كان من أفسق الناس وأكفرهم ، ويعادي من يعادي أميره وإن كان من أعلم الناس

وأصلحهم ، فاختلت عنده موازين الولاء والبراء لأنه اختل عنده قبل ذلك ميزان المحبة والرجاء ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ، وصار كثير من الأتباع يسكت عن جورهم وظلمهم وبغيهم ومخالفاتهم ، لأن توجيههم ونصحهم يكدر عليه صفو ما كان يرجوه من دنياهم ، فصار يرجو منهم أكثر مما يرجو من الله تعالى ، وهذا كله محل بالتوحيد ، ولا يسلم صاحبه من الوقوع في برائن الشرك الأكبر أو الأصغر ، ولذلك فالسلامة التباعد عنهم والحذر من الوقوف عند أبوابهم إلا للنصح والتوجيه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإيصال حوائج المحتاجين الذين لا يقدر على إيصالها لهم ، والسلامة لا يعدلها شيء ، ولأن الرجاء عمل قلبي فلا بد من مراعاته ومراقبته دائما ، فيبقى العبد الناصح لنفسه محاسبا لها فيما يصدر منه من رجاء ، قال تعالى " فن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا " وقال تعالى " أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه " وقال تعالى " وترجون من الله مالا يرجون " وقال تعالى " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا " أمن هو قائم آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه " وقال تعالى " إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا " والرغب هو الرجاء ، والرهب هو الخوف ، وفي الحديث : — دخل النبي صلى الله عليه ولم على رجل وهو في الموت فقال له " كيف تجددك ؟ " قال : — أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يجتمعان في قلب عبد

في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوه وأمنه مما يخاف " رواه الترمذي وحسنه الألباني ، ومن دعائه عليه الصلاة والسلام " اللهم إني أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وألجأت ظهري إليك ، وفوضت أمري إليك ، رغبة ورهبة إليك ... الحديث " فقله " رغبة ورهبة " حال تدل على الباعث على ذلك ، أي أنني إنما فعلت ذلك لأنني أرجوك وأخاف منك ، فلا ترج أيها العبد إلا الله تعالى فإنه وحده مالك الملك وييده كل شيء ، وهو النافع الضار المعطي المانع ، فالملوك إنما وصلوا للملك لما أعطاهم الله تعالى الملك فارح المتفضل عليهم بالملك ولا ترجهم ، والعزيز في ماله أو منصبه أو علمه إنما وصل لهذه العزة لما آتاه الله ذلك فارح من أعطاهم العزة ولا ترجهم ، " قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير " فكل شيء تطلعت له نفسك عند المخلوق فالله هو مالكة الحقيقي ، وهو الذي أعطاه هذا المخلوق ، فارح من أعطاه ولا ترج المخلوق الضعيف العاجز ، فنسأل الله تعالى أن يعيننا على أن لا نصرف رجاءنا إلا له وحده لا شريك له ، فالقلوب تطمح ، والنفوس ضعيفة ، وحب العاجلة من طبعنا ، والشيطان لنا بالمرصاد ، ولا معين على تجاوز هذه العقبات إلا الله وحده ، فنعوذ بالله من فتنة المال ونعوذ به من فتنة شهوة المناصب ونعوذ به من فتنة حب العاجلة ، ونعوذ به من الفتن كلها ما ظهر منها وما بطن ، والله المستعان وعليه وحده التكلان .

ومما يتفرع عليها أيضا: — الاستعانة ، وهي طلب العون ، وقد قسمها العلماء إلى أقسام ، الأول: — الاستعانة بالله تعالى ، وهي الاستعانة المتضمنة لكمال الذل من العبد لربه ، وتفويض الأمر إليه ، واعتقاد كفايته ، فهذه لا تكون إلا لله تعالى ، قال تعالى " إياك نعبد وإياك نستعين " فقدم ما حقه التأخير لإفادة الاختصاص ، أي لا نستعين إلا بك ، ولا نستعين بغيرك ، وعلى هذا يكون صرف هذا النوع من الاستعانة لغير الله تعالى من الشرك الأكبر المخرج عن الملة ، الثاني: — الاستعانة بال مخلوق فيها لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فهذا أيضا من الشرك الأكبر ، كالاستعانة بالأموات ، أو الأحياء غير الحاضرين ، أو في أمر غائب لا يقدر على مباشرته ، لأنه لا يقع إلا من شخص يعتقد أن هؤلاء تصرفا خفيا في الكون ، الثالث: — الاستعانة بالأعمال والأحوال المحبوبة لله تعالى وهذه مشروعة شرع إيجاب أو شرع استحباب على حسب نوع العمل كقوله تعالى " واستعينوا بالصبر والصلاة " وعليه فالاستعانة بالله تعالى من العبادات التي لا يجوز صرفها لغيره إن كانت في أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس " إذا استعنت فاستعن بالله " الرابع: — الاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه هذا المخلوق ، فهذا يختلف حكمه باختلاف الأمر المستعان به فيه فإن كانت الاستعانة في أمر مشروع فهي مشروعة ، وإن كانت في أمر ممنوع فهي محرمة ، كما قال تعالى " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " وعليه: — فالاستعانة بالقبور وأصحابها من الشرك الأكبر لأن المستعين بهم يعتقد أن لهم تصرفا خفيا في الكون ، والاستعانة

بالأموات من الأنبياء والأولياء من الشرك الأكبر كذلك ، والاستعانة بالغائبين من الشرك أيضا ، كمن يكون في العراق ويستعين بمن في مصر برفع صوته (مدد ، مدد ، يا سيدي فلان) ونحو هذه الألفاظ ، فالمعونة لا تطلب إلا من الله تعالى ، قال عليه الصلاة والسلام لمعاذ " لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول :— اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك " .

ومما يتفرع عليها أيضا :— الاستعاذة ، وهي طلب العوذ من الأمر المخوف ، وقد قسمها أهل العلم إلى أقسام ، الأول :— الاستعاذة بالله تعالى المتضمنة لكمال الافتقار إليه والاعتصام به واعتقاد كفايته وتمام حمايته من كل شيء حاضر أو مستقبل ، صغير أو كبير ، بشر أو غير بشر ، كما قال تعالى " قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس " وقال تعالى " قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد " الثاني :— الاستعاذة بصفة من صفات الله تعالى ، ككلامه وعزته وعظمته ، فهي حق مشروعة ، لحديث " أعذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق " وحديث " أعوذ بعزة الله وعظمته من شر ما أجد وأحاذر " وحديث " أعوذ بوجهك " لما نزل عليه قوله تعالى " قل هو القادر على أن يبعث عليكم من فوقك ... الآية " وحديث " أعوذ برضاك من سخطك " الثالث :— الاستعاذة بالأموات ، فهذه من الشرك الأكبر ، لأنه صرف العبادة لغير الله تعالى ، ولأنه لم يستعد بهم وهم أموات إلا لأنه يعتقد أن

لهم تصرفا خفيا في الكون ، الرابع : — الاستعاذة بالجن والشياطين ، وهي من الشرك الأكبر أيضا ، قال تعالى " وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا " الخامس : — الاستعاذة بالأحياء الغائبين من الإنس وهي من الشرك الأكبر لأنه لم يستعذ بهم إلا لاعتقاده أن لهم تصرفا خفيا في الكون ، السادس : — الاستعاذة بالمخلوق الحاضر فيما يقدر عليه ، فهي جائزة لا بأس بها ، على أنه مجرد سبب في العوذ ، وأن المعيد في الحقيقة ابتداء هو الله تعالى ، السابع : — الاستعاذة بالمخلوق الحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وهذه من الشرك الأكبر أيضا ، لأنه لم يستعذ به فيما لا يقدر عليه إلا وهو يعتقد أن له قدرة خفية وتصرفا في الكون . الثامن : — بالأماكن التي هي في نفسها سالحة لذلك ، فلا بأس بها ، لا على أنها هي المعيدة بذاتها ، وإنما على وجه أن الله تعالى جعلها سالحة ، وجعلها سببا في إعادة من كان فيها ، وفي الحديث في أمر الفتن " من استشرف لها تستشرفه ومن وجد معاذا فليعذ به " وقد ورد تفسير المعاذ هنا في رواية مسلم " فمن كان له إبل فليلحق بها " وروى مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه ، أن امرأة من بني مخزوم سرقَت فأتى بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فعادت بأم سلمة ... الحديث وفي الحديث " يعوذ عائذ بالبيت .. الحديث " وعليه : — فالاستعاذة بالأموال شرك أكبر مطلقا ، والاستعاذة بالجن شرك أكبر مطلقا ، والاستعاذة بالغائبين من الإنس شرك أكبر مطلقا ، والاستعاذة بالحاضرين من الإنس فيما لا يقدر عليهم شرك أكبر مطلقا ، وأما الاستعاذة بالمخلوق فيما يقدر عليه فلا بأس بها ،

وكذلك الاستعاذة بالمكان الذي جعله الله سببا في العوذ. والله تعالى موفق والهادي إلى سواء السبيل .

ومما يتفرع عليها أيضا :— الرهبة ، فهي من العبادات التي لا يجوز صرفها لغير الله تعالى ، ويقال فيها ما قلناه في الخوف ، لأنها بمعناه ، قال تعالى " ويدعوننا رغبا ورهبا " وقال تعالى " وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون " وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر ، وقال تعالى " وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون " فخص الرهبة له وحده لا شريك له فيها ، فهي كقوله " إياك نعبد وإياك نستعين " فهذا التركيب في اللغة يفيد الحصر ، فكا أنه لا يعبد إلا الله تعالى ولا يستعان إلا به جل وعلا ، فكذلك لا يرهب إلا منه وحده عز وجل ، وقد قرن الله توحيدته برهبته فقال تعالى " إنما إلهكم إله واحد فإياي فارهبون " فصار توحيدته في الرهبة من مقتضيات توحيدته في الألوهية ، وقد عاب الله تعالى على قوم بأنهم جعلوا الرهبة من المخلوق أعظم في قلوبهم من الرهبة من الله تعالى فقال تعالى " لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون " وعليه :— فلا يجوز الرهبة من القبور وأصحابها ، لأن الذي يرهب منهم مع أنهم أموات إنما فعل ذلك لأنه يعتقد أن لهم تصرفا خفيا في الكون ، ولا تجوز الرهبة من الأشجار والأحجار والكهوف والمغارات التي لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا ، لأن من يرهب منها مع أنها جمادات إنما فعل ذلك لأنه أضفى عليها من الصفات ما ظن معه أن لها تصرفا في هذا الكون ، ولا تجوز رهبة التعبد من أي مخلوق

كائنا من كان . هذا هو مقتضى التوحيد الذي بعث الله به نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم.

ومما يتفرع عليها أيضا: — المحبة ، فإن منها ما يكون عبادة لا يجوز صرفه لغير الله تعالى ، فمحبة الله تعالى أصل كل عمل من أعمال الدين ، والمحبة شرط من شروط كلمة التوحيد ، فلا بد من إخلاص المحبة لله تعالى ، فلا يكون له شريك في الحب ، ومن عبد غير الله فأصل محبته له حبه لهذا الغير ، قال تعالى " ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله " فأعظم المحبة وأوجبها ما كان خالصا لله تعالى ، وأكذب المحبة وأظلمها ما كان حاملا على التعبد لغيره كمحبة عباد الأصنام والأوثان لها ، ومحبة عباد القبور لأصحابها ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى وهو يوضح أهمية المحبة ومزلتها في الدين (فلو بطلت المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان ولتعطلت منازل السير إلى الله فإنها روح كل مقام فإذا خلا منها فإنه ميت لا روح فيه ، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها ، بل هي حقيقة الإخلاص ، بل هي نفس الإسلام فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله فمن لا محبة له فلا إسلام له البتة ، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله فإن الإله هو الذي يأله العباد حبا وذلا وخوفا ورجاء وتعظيما وطاعة له ، بمعنى مألوه وهو الذي تأله القلوب أي تحبه وتذل له ، وأصل التأله لتعبد والتعبد آخر مراتب الحب ، يقال : — عبده الحب أي تيمه ، إذا ملكه وذلكه لمحبهه) اهـ — والمحبة لها أقسام لا بد من التفريق بينها ، الأول : — محبة الله تعالى ، وهي محبة التعبد المقتضية لآثارها ، وهي أصل الدين

، ومثلتها في الدين كما ذكره ابن القيم قبل قليل ، وهب من العبادات التي يجب أن يخص الله تعالى ، فمن صرف محبة التعبد لغير الله تعالى فقد وقع في الشرك الأكبر ، الثاني : — المحبة مع الله تعالى ، وهي المحبة الشركية الباطلة الكاذبة ، أي أن يحب غير الله تعالى كمحبة الله تعالى ، أو يحبه محبة التعبد التي لا تجوز إلا له سبحانه ، وذلك كمحبة المشركين لأناداهم ، كما قال تعالى " ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله " فهم يحبون الله ، لكنهم يحبون معه أوثانهم كما يحبونه ، فصاروا مشركين . محبتهم لغير الله تعالى كما يحبونه ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى (الشرك في المحبة والتعظيم بأن يجب مخلوقا كما يجب الله تعالى فهذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله) قلت : — فمن سوى بين الله تعالى وبين غيره في المحبة فقد أشرك ، ولقد ندم أهل النار بعد أن كبكبوا فيها هم والغاؤون وجنود إبليس أجمعون ، قالوا " وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين " فلأنهم سوا معبوداتهم بالله تعالى دخلوا النار خالدون فيها أبد الآباد ، وهذا دليل على أن من سوى بالله غيره فيما هو من خصائصه فقد أشرك ، فالمحبة التعبدية من العبادات والعبادات حق صرف محض لله تعالى لا يجوز صرفها لملك مقرب ولا لنبى مرسل ولا لولي صالح ، فضلا عن غيرهم ، وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ومن الأمور المبينة لتفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله : — آية البقرة في الكفار الذين قال الله تعالى فيهم " وما هم بخارجين ذكر أنهم يحبون أناداهم كحب الله ، فدل على أنهم يحبون الله حبا عظيما

، فلم يدخلوا في الإسلام ، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله ،
وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ؟) الثالث : — المحبة الطبيعية ،
كمحبة المال والزوجة والولد ونحوها ، فهذه المحبة لا يلام الإنسان عليها ،
لكن لا بد فيها من الوسطية ، فلا يجوز الغلو فيها ، فلا إفراط ولا
تفريط ، ولا بد أن تكون المحبة الطبيعية تابعة لما يحبه الله ورسوله صلى الله
عليه وسلم ، فمن قدمها على محبة الله ورسوله فقد باء بالخسران المبين ،
قال تعالى " قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم
وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها
أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره
والله لا يهدي القوم الفاسقين " بل وتنقلب هذه المحبة إلى عداوة في الباطن
، كما قال تعالى " إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم "
وقال تعالى " يا أيها الذين ءآمنوا لا تلهكم أموالكم وأولادكم عن ذكر
الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون " وعليه فالمحبة الأولى هي المحبة
التعبدية ، والمحبة الثانية هي المحبة الشركية الشيطانية ، والثالثة هي المحبة
الطبيعية العادية ، واعلم رحمك الله تعالى أن محبة الله عز وجل لها
مقتضيات لا بد من ذكرها ، فمنها : — أن تكون هذه المحبة هي المقدمة
على كل محبة ، كما ذكرنا دليله سابقا ، ومنها : — طاعته جل وعلا
فيما أمر به ، ومنها : — الانتهاء عن ما نهى وزجر ، ومنها : —
التعبد له بمقتضى ما شرع ، ومنها : — متابعة نبيه صلى الله عليه وسلم
، قال تعالى " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله " ومنها : —

بغض أعدائه الذين كفروا بشرعه ، ووجدوا رسالة أنبيائه ، والله ربنا أعلم .

ومما يتفرع عليها أيضا: — الطواف ، فإنه من العبادات التي أمر الله تعالى بها ، فقال تعالى " وليطوفوا بالبيت العتيق " ولكنه من العبادات الخاصة بالبيت العتيق ، فلا يطاف بأي جزء من أجزاء الأرض ، لا مسجدا ولا قبرا ولا غيرهما ، وعليه فلا يجوز التعبد بالطواف لغير الله تعالى ، ولا يجوز الطواف إلا بالبيت العتيق ، فمن تعبد بالطواف لغير الله تعالى فقد وقع في الشرك الأكبر ، ونعني بالطواف الذي يكون شركا هو الطواف بغير الكعبة مع قصد التقرب لغير الله تعالى به ، كالطواف بالقبور والمشاهد ونحوها ، بقصد التقرب لأهلها بالطواف ، وأما لو طاف بتلك القبور بقصد التقرب إلى الله تعالى فهذا محرم ، وبدعة منكرة ، وشرك أصغر ، ووسيلة من وسائل الشرك الأكبر ، قال أبو العباس (وأما الرجل الذي طلب من والده الحج ، فأمره أن يطوف بنفس الأب ، وقال :— طف بيت ما فارقه الله طرفه عين ، فهذا كفر بإجماع المسلمين ، فإن الطواف بالبيت العتيق ، مما أمر الله به ورسوله ، وأما الطواف بالأنبياء والصالحين فحرام بإجماع المسلمين ، ومن اعتقد دينا فهو كافر ، سواء طاف ببدنه أو بقبوره) وقال أيضا (ليس في الأرض مكان يطاف به كما يطاف بالكعبة ، ومن اعتقد أن الطواف بغيرها مشروع فهو شر ممن يعتقد جواز الصلاة لغير الكعبة ، ... فمن اتخذ الصخرة اليوم قبلة يصلي إليها فهو كافر مرتد يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، مع أنها كانت قبلة ، لكن نسخ ذلك ، فكيف بمن اتخذها مكانا يطاف

به ، كما يطاف بالكعبة ، والطواف بغير الكعبة لم يشرعه الله بحال) وفي الحديث " إنما الطواف بالبيت صلاة ، فإذا طفتهم فأقلوا الكلام " رواه أحمد ، وعن ابن عباس مرفوعا وموقوفا " الطواف بالبيت صلاة إلا أن الله أحل فيه المنطق فمن نطق فلا ينطق إلا بخير " رواه الترمذي وغيره ، وعن عروة قال :— سألت عائشة رضي الله عنها فقلي لها :— رأيت قول الله تعالى " إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما " فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة ، قالت :— بئس ما قلت يا ابن أخي إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت :— لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما ، ولكنها أنزلت في الأنصار ، كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، فكان من أهل يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة ، فلما أسلموا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، قالوا :— يا رسول الله ، إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة ، فأنزل الله تعالى " إن الصفا والمروة من شعائر الله ... الآية " قالت عائشة رضي الله عنها :— وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما ، متفق عليه ، ولمسلم من قول عائشة رضي الله عنها :— إنما كان ذاك أن الأنصار كانوا يهلون في الجاهلية لصنمين على شط البحر يقال لهما (إساف ونائلة) ثم يجيئون فيطوفون بين الصفا والمروة ، ثم يخلقون فلما جاء الإسلام كرهوا أن يطوفوا بينهما للذي كانوا يصنعون في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل " إن الصفا والمروة من شعائر الله ... إلى آخرها " فطافوا .وعن أبي هريرة

رضي الله عنه قال :— قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة ، وكانت صنما يعبدها دوس في الجاهلية بتبانة ، متفق عليه ، فالطواف بالبيت العتيق من العبادات التي أمر الله بها ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ومحلها حول البيت العتيق ، فلا يجوز أن تصرف لغير الله تعالى ، لأنها عبادة ، والعبادات حق صرف محض لله تعالى لا تصرف لملك مقرب ولا لني مرسل ولا لولي صالح ، فلا يجوز الطواف بالقبور ولا بالأشجار ولا بالأحجار ولا بالكهوف والمغارات ، وليس عظمة البقعة أيا كانت وأين كانت تسوغ الطواف بها ، بل الطواف من خصائص البيت العتيق التي لا يشاركه فيها غيره ، فكما أن الطواف من العبادات التي لا يجوز صرفها لغير الله تعالى ، فكذلك هو من خصائص البيت العتيق فلا يطاف بغيره .

ومما يتفرع عليه أيضا :— الحلف ، فإن الحلف من العبادات بالاتفاق ، وهو تأكيد إثبات أمر أو نفيه بذكر اسم من أسماء الله تعالى ، أو صفة من صفاته ، والقاعدة عند أهل السنة والجماعة أنه لا يجوز الحلف إلا بالله أو صفة من صفاته ، وتقرر أيضا :— أن المخلوق لا يجوز الحلف به مطلقا ، وتقرر أيضا :— أن من حلف بغير الله فقد أشرك ، والعلة في ذلك أن اليمين من العبادات ، والمتقرر أن من صرف العبادة لغير الله تعالى فقد وقع في الشرك ، فالحلف بغير الله تعالى من الشرك ، لكن يكون من الشرك الأكبر إذا حلف بالمخلوق معظما له كتعظيم الله تعالى ، وأما إن لم يصاحبه التعظيم ، فهو من قبيل الشرك الأصغر ، وإياك أن تستسهل به ، فإنه أكبر الكبائر ، وإنما سماه العلماء أصغر ليميز عن قسيمه الأكبر ،

فالحلف من العبادات التي لا يجوز أن تعقد بغيره ، فإن قلت :— إننا نجد أن الله تعالى يحلف بالمخلوقات ، كالشمس والقمر والضحى ونحوها ؟ فأقول :— إن الله تعالى لا يدخل تحت أحكام التكليف ، وإنما التكليف من خصائص الثقلين ، الإنس والجن ، فله أن يحلف بما شاء من مخلوقاته وليس للمخلوق إلا أن يحلف بالله أو صفة من صفاته ، والله تعالى " لا يسأل عما يفعل وهم يسألون " فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب يحلف بأبيه ، فقال " ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت " قال عمر :— فوالله ما حلفت بها منذ سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ذاكرا ولا آثرا ، متفق عليه ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :— قال رسول الله عليه وسلم " لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد ولا تحلفوا إلا بالله ، ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون " رواه أبو داود والنسائي ، وعن بريدة رضي الله عنه قال :— قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من حلف بالأمانة فليس منا " رواه أحمد وأبو داود ، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لو أن أحدكم حلف بالمسيح لهلك — والمسيح خير من آبائكم — " رواه ابن شبيبة ، وقال ابن حجر :— هذا مرسل يتقوى بشواهد ، وعن عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال :— قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم " رواه مسلم ، وعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال :— قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من حلف

بملة غير الإسلام فهو كما قال " متفق عليه ، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من حلف بغير الله فقد كفر أو أسرك " رواه أحمد وأبو داود والترمذي ، فإن قلت :— فنحن نجد في حديث صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال مرة " أفلح وأبيه إن صدق " وهذا حلف بغير الله ، فأقول :— لا إشكال في ذلك ، لأن هذه اللفظة شاذة غير محفوظة ، لأنها من زيادة إسماعيل بن جعفر ، وهو ثقة ، ولكنه خالف من هو أوثق منه ، فقد رواه قتيبة بن سعيد ، وإسماعيل بن عبد الله ، وعبد الله بن مسلمة ، وعبدالرحمن بن القاسم ، وعبد الله بن نافع ، ومحمد بن إدريس الشافعي ، ومطرف بن عبد الله ، وعبدالرحمن بن مهدي ، وأحمد بن أبي بكر الزهري ، ومعن بن عيسى ، فكل هؤلاء الأثبات الثقات رووه عن مالك عن أبي سهيل عن أبيه عن طلحة (به) وكل هؤلاء الرواة الثقات لم يذكروا زيادة إسماعيل بن جعفر ، فكيف بالله عليك تقاوم هذه الزيادة ما ثبت عن هؤلاء الثقات فلا شك أنها زيادة شاذة أي غير محفوظة ، بل إن إسماعيل بن جعفر نفسه روى هذا الحديث مرة بلا هذه الزيادة ، وهذا يؤيد أنها شاذة ، وتقرر في قواعد التحديث أن الشاذ من قسم الضعيف ، فإن قلت :— دعنا من هذا ، لكن كيف تقول في حديث في حديث أبي هريرة عند مسلم في صحيحه ، أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :— من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال " أمك " قال :— ثم من ؟ قال " ثم أمك " قال ثم من ؟ قال " ثم أمك " قال ثم من ؟ قال " ثم أبوك " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " نعم وأبيك لتنبأن " ،

فقوله " وأبيك " هذا قسم بغير الله تعالى ، فما الجواب ؟ فأقول : — إن لفظة " وأبيك لتنبأ " تدور على شريك بن عبدالله ، وقد خالف فيها الثقات ، كسفيان بن عيينة ، وعبدالله بن المبارك ، ووهيب بن خالد ، ومحمد بن طلحة ، وجرير بن عبد الحميد والمفضل بن غزوان ، حيث رووها بلفظ " والله لتنبأ " وقد قال ابن معين : — (شريك بن عبدالله صدوق ثقة ، إلا أنه إذا خالف فغيره أحب إلينا منه) وقال ابن حجر قى التقريب (صدوق يخطئ كثيرا) ثم إن شريك نفسه قد روى هذا الحديث بلفظ " والله لتنبأ " كما أخرجه أحمد وابن ماجه ، والخلاصة أن الحلف من العبادة فلا يجوز مطلقا أن يصرف لغيره ، واعلم رحمك الله تعالى أن من حلف بغير الله تعالى فعليه أن يجبر الكسر الذي حصل في توحيده بالنطق بكلمة التوحيد ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من حلف فقال في حلفه واللات والعزى ، فليقل : — لا إله إلا الله " متفق عليه ، وإن زاد التعوذ باله من الشيطان الرجيم فهو حسن ، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : — كنا نذكر بعض الأمر ، وأنا حديث عهد بالجاهلية ، فحلفت باللات والعزى ، فقال لي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : — بمس ما قلت ، ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره ، فإنا لا نراك إلا كفرت ، فأتيته ، فأخبرته ، فقال لي " قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له — ثلاث مرات — وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم — ثلاث مرات — واتقل عن يسارك — ثلاث مرات — ولا تعد " رواه أحمد والنسائي وابن ماجه ، وعليه فلا

يجوز الحلف بغير الله تعالى البتة ، لأن الحلف بغير الله من الشرك الذي يكون أكبر باعتبار وأصغر باعتبار ، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه : — لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا ، قال العلماء ، لأن الحلف بالله كاذبا لا تعدو أن تكون معصية ، وأما الحلف بغيره فهو من الشرك وإن كنت صادقا ، وإننا لنعجب من بعض الناس لا يتورع عن الحلف بالله وهو كاذب يعلم أنه كذاب ، وأما إذا أراد أن يبر في يمينه ، وأراد أن يبالغ في أنه صادق فإنك تراه يحلف بغير الله تعالى ، فلم يعتقد جواز الحلف بغير الله فقط ، بل زاد على ذلك أنه جعل الحلف بغيره من العلامات الدالة على صدق يمينه ، وأنه بار فيها ، فتجد الناس يعتقدون قلوبهم على صدقه لأنه حلف بالولي المعظم عندهم ، ولكن إذا سمعوه يحلف بالله فإن الأمر عندهم لم يأخذ حظه من التأكيد فلا يزالون في ريبتهم من أمره يترددون ، وهذا — بلا شك — من الشرك الأكبر لأنه حلف بغير الله معظما له أشد من تعظيم الله ، لأنه تجرأ على الكذب في يمينه بالله تعالى ولم يتجرأ على الكذب في يمينه بشيخه المعظم عنده ، وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما قول الله تعالى " فلا تجعلوا لله أندادا " بقوله (الأنداد هو الشرك ، أخفى من ديب النمل على صفة سوداء في ظلمة الليل وهي أن تقول :— والله وحياتك يا فلان ، وحياتي) قال ابن عبد البر رحمه الله تعالى (لا يجوز الحلف بغير الله سبحانه وتعالى في شيء من الأشياء ، ولا حال من الأحوال ، وهذا أمر مجتمع عليه) وقال القرطبي رحمه الله تعالى (إنما هي النبي صلى الله عليه وسلم عن الحلف بالآباء لما فيه من تعظيمهم بصيغ الأيمان ، لأن العادة

جارية بأن الحالف منا إنما يحلف بأعظم ما يعتقد ، وإذا كان كذلك فلا أعظم عند المؤمن من الله تعالى ، فينبغي إن لا يحلف بغيره ، فإذا حلف بغير الله تعالى فقد عظم ذلك الغير بمثل ما عظم به الله تعالى ، وذلك ممنوع منه) وقال الشنقيطي رحمه الله تعالى (اعلم أن اليمين لا تنعقد إلا بأسماء الله تعالى وصفاته ، فلا يجوز القسم بمخلوق) وقال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله تعالى (وأجمع العلماء على أن اليمين لا تكون إلا بالله أو بصفاته ، وأجمعوا على المنع من الحلف بغيره) والله ربنا يتولانا وإياك لما فيه خيري الدنيا والآخرة .

ومما يتفرع عليها أيضا: الخشوع، وهو الذل والتطامن لعظمة الله تعالى بحيث يستسلم لقضائه الكوني والشرعي، وهو خشوع التعبد ، لأن العبادة هي ما اشتملت على كمال الذل وكمال الحب وكمال التعظيم ، فمجموع هذه الأشياء يثمر الخشوع في قلب العبد، فلا يخشع القلب إلا بمجموع ذلك ، وعليه فالخشوع من العبادات التي لا يجوز صرفها لغيره جل وعلا ، قال تعالى " إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين " فقلوه " لنا خاشعين " هذا يفيد الحصر ، لأنه قدم ما حقه التأخير ، وقد تقرر لنا في مناسبات متعددة أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر ، أي أنهم كانوا يخلصوننا بالخشوع ، ولا يصرفونه لغيرنا ، وهذا دليل على الخشوع عبادة ، لأن الله تعالى امتدح المتصفين به ، ولا يمدح إلا ما يحبه ويرضاه من الأقوال والأعمال ، وقد عرفنا سابقا أن العبادة اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، وقال تعالى " ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله

وما نزل من الحق " وقال تعالى في سياق الأوصاف التي يمدح بها المؤمنين والمؤمنات " والخاشعين والخاشعات " وقال تعالى " قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون " فالخشوع من التعبادات القلبية التي لها آثارها على الجوارح ، فلا يجوز صرفها لغير الله تعالى لأن العبادة حق الله المحض الصرف الذي لا حق لأحد فيه لا من ملك ولا من نبي مرسل ولا غير ذلك ، فالخشوع الذي يعلو عباد الأصنام عند زيارتها وما يحصل على المرید في حضور شيخه الصوفي ونحو ذلك كله من صور الشرك بالله تعالى ، فإنهم يخشعون خشوعا لا يحصل عشره في الوقوف بين يدي الله تعالى ، في الصلاة ، فإنك أن يتحرك قلبك في صرف ذلك لغير الله تعالى .
ومن الفروع أيضا: — الرغبة، ويقال فيها ما قلناه في الرجاء لأنها منه، والله أعلم.

ومنها أيضا: — النذر، وهو من العبادات بالاتفاق، وذلك لأن الله تعالى قد أمر بالوفاء به، ولا يأمر إلا بما يحبه ويرضاه، وقد امتدح الله تعالى الموفين به، والمدح على الشيء دليل على أن هذا الشيء من العبادات، قال تعالى " يوفون بالنذر " وقال تعالى " وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار " وقال النبي صلى الله عليه وسلم " ومن نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه " رواه البخاري ، وعليه فانذر من العبادات التي لا يجوز صرفها لغير الله تعالى ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :— قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :— " رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار ، وكان أول من سيب السوائب " أي الإبل المنذورة للآلهة فلا يتعرض لها أحد ،

وعن كردم بن سفيان رضي الله عنه ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نذر نذر في الجاهلية ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "ألوثن أو لنصب ؟" قال : " لا ولكن الله تبارك وتعالى ، قال " فأوف لله تعالى ما جعلت له " رواه أحمد وابن ماجه ، وعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال : " نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال له " هل كان فيها وثن يعبد ؟" قالوا : " لا ، قال : " هل كان فيها عيد من أعيادهم ؟" قالوا : " لا ، قال للرجل " فأوف بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملكه ابن آدم " رواه أبو داود وهو على شرط الصحيح ، وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " النذر نذران ، فما كان من نذر في طاعة الله فذلك لله وفيه الوفاء ، وما كان من نذر في معصية الله تعالى فذلك للشيطان ، ولا وفاء فيه ، ويكفره ما يكفر اليمين " رواه النسائي ، قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله تعالى (وأما ما نذره لغير الله تعالى كالنذر للأصنام والشمس والقمر ونحو ذلك ، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله تعالى من المخلوقات ، والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة ، وكذلك الناذر للمخلوق ليس عليه وفاء ولا كفارة ، فإن كليهما شرك ، والشرك ليس له حرمة) قال الفقهاء (خمسة لغير الله شرك : — الركوع والسجود والنذر والذبح واليمين) وقال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله تعالى (فإن نذر لمخلوق تقربا إليه ليشفع له عند الله تعالى ويكشف ضرره فقد أشرك في عبادة الله تعالى غيره ضرورة ، كما أن من

صلى لله وصلى لغيره فقد أشرك كذلك هذا) قال قاسم بن قطلوبغا وتبعه كثير من الحنفية على قوله هذا ونقلوه عنه نقل المقر بما فيه ، قال (وأما النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد ، كأن يكون لإنسان غائب أو مريض أو له حاجة ضرورية فيأتي بعض قبور الصالحاء فيجعل ستره على رأسه ، فيقول :— يا سيدي فلان إن رد غائبي أو عوفي مريض أو قضيت حاجتي فلك من الذهب كذا ومن الفضة كذا ، ومن الطعام كذا ومن الماء كذا ومن الشمع كذا ومن الزيت كذا فهذا النذر باطل لوجوه :— منها :— أنه نذر لمخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز ، لأنه عبادة والعبادة لا تكون للمخلوق ، ومنهل :— أن المنذور له ميت ، والميت لا يملك ، ومنها :— أنه إن ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله تعالى واعتقاد ذلك كفر) وزاد على ذلك علاء الدين الحصكفي (وقد ابتلي الناس بذلك ولا سيما في هذه الأعصار) وزاد ابن عابدين الحنفي (ولا سيما في مولد البدوي)

ومن الفروع أيضا :— الصلاة ، وهي أعظم العبادات البدنية ، وثاني أركان الإسلام وعمود الدين ، وهي من أخص خصائص العبادات التي لا تصرف إلا لله تعالى ولكن أبي المشركون إلا ليصرفوها للقبور المعظمة عندهم ، فترى كثيرا منهم ممن تمكن الشيطان من قلبه يصلي للقبر ، فيفتتح الصلاة ويكبر ويركع ويسجد للقبر ، فالقبر هو وجهة قلبه ووجهه ، وهذا هو الشرك الصريح الذي لا يختلف فيه أحد من المسلمين ، ولذلك ذكر الله تعالى عن القوم الذين وجدوا أصحاب الكهف ، أن منهم قال " لتتخذن عليهم مسجدا " مع أنه جل وعلا قال " وأن

المساجد لله فلا تدعوا نع الله أحدا " فالقبور يون يعتقدون جواز بناء المساجد والقباب على القبور ، بل ويدعون إلى ذلك كما قرر لهم ذلك جهمي زمانه الكوثري في مقالة فاجرة أسماها (بناء المساجد على القبور والصلاة إليها) ويجعلون ذلك من تعظيم الأولياء ، وكذبوا والله ، بل هذا من الشرك بالله تعالى ، ولقد جاءت الشريعة محذرة من ذلك أشد تحذير ، وقد كانت هذه القضية الخطيرة مشغلة لبال النبي صلى الله عليه وسلم وهو في سياقة الموت ، واتخاذ المساجد على القبور والصلاة أليها من غلو أهل الكتاب في أنبيائهم وصالحهم ، فعن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالا :— لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم — أي الموت — طفق يطرح خميصة على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك :— " لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " يحذر ما صنعوا ، قالت عائشة :— ولولا ذلك لأبرز قبره ، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا ، متفق عليه ، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :— قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :— " إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهو أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد " رواه أحمد ، وعن عائشة رضي الله عنه ، أن أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهما ذكرتا للنبي صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها :— مارية ، وما فيها من حسناتها والتصاوير فيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :— " أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة " متفق عليه ، وعن أبي

مرثد الغنوي رضي الله عنه قال : — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : — " لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها " رواه مسلم ، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : — " الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام " رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلى بين القبور " رواه ابن حبان ، وعن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال : — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : — " اللهم لا تجعل قبوري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " رواه أحمد ، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : — " اللهم لا تجعل قبوري وثنا يعبد ، لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " وعن جندب بن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال : — سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس يقول : — " ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك " فقد نهى عنه وهو في الموت ، فهو نهى محكم لم ينسخ ، ولا يمكن أصلا أن يدخله النسخ ، والصلاة عندها من اتخاذها مساجد ، وإن لم يكن لها مسجد خاص ، ولذلك فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بتسوية القبور المشرفة سدا لذريعة اتخاذها مساجد ، وإغلاق باب تعظيمها التعظيم الموصل لعبادتها من دون الله تعالى ، فعن أبي الهياج الأسدي قال : — قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه : — ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن

لا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبرا مشرفا إلا سويته " رواه مسلم ، وعن ثمامة بن شفي قال : — كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس ، فتوفي صاحب لنا ، فأمر فضالة بن عبيد بتسوية قبره ، ثم قال : — سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسوية القبور " رواه مسلم ، وأصل ذلك والباعث عليه هو الغلو في القبور وأصحابها ، فإن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله تعالى ، وقد أجمع علماء الإسلام على حرمة البناء على القبور وعلى حرمة اتخاذها مساجد ، وأن ذلك من الشرك ووسائله ، قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله تعالى (وبالجملة فالغلو أصل الشرك في الأولين والآخرين إلى يوم القيامة ، وقد أمرنا الله تعالى بمحبة أوليائه وإنزالهم منازلهم من العبودية ، وسلب خصائص الإلهية عنهم ، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم ، ونهانا عن الغلو فيهم ، فلا نرفعهم فوق منزلتهم ، ولا نخطهم منها ، لما يعلمه الله تعالى في ذلك من الفساد العظيم ، فما وقع الشرك إلا بسبب الغلو فيهم ، فإن الشرك بهم غلو فيهم ، وأنزلوهم منازل الألوهية ، وعصوا أمرهم ، وتنقصوهم في صورة التعظيم لهم ، فتجد أكثر هؤلاء الغالين فيهم ، العاكفين على قبورهم ، معرضين عن طريقة من فيها وهدية وسنته ، غائبين لها ، مشتغلين بقبورهم عما أمروا به ودعوا إليه ، وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما هو باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح ، واقتفاء آثارهم ، وسلوك طريقتهم دون عبادتهم وعبادة قبورهم ، والعكوف عليها ، كالذين يعكفون على الأصنام ، واتخاذها عيدا ومجامع للزيارات والفواحش وترك الصلوات ، فإن من اقتفى آثارهم كان

متسببا في تكثير أجورهم باتباعه لهم ، ودعوته الناس إلى اتباعهم ، فإذا أعرض عما دعوا إليه واشتغل بضده حرم نفسه وحرّمهم من ذلك الأجر ، فأبي تعظيم لهم واحترام لهم في هذا) قال علماؤنا (والعكوف على القبور والتمسح بها وتقبيّلها والصلاة عندها والدعاء عندها هو أصل الشرك وعبادة الأوثان) وبالجملة فالصلاة عند القبور واتخاذها مساجد من أعظم النكرات وأشد المنهيات ، فإن فعل ذلك مما يصير القبور أوثانا تعبد من دون الله تعالى ، ولنا في التحذير من فتنة القبور رسالة كتبناها مبينا فيها كل ما يتعلق بذلك من الشبه والبدع ، والله المستعان وحده لا شريك له .

ومما يتفرع عليها أيضا : — الاعتكاف ، فإنه من العبادات التي لا يجوز صرفها إلا لله تعالى ، وقد أجمع المسلمون على ذلك ، وقد جرت عادة المشركين أن يعكفوا عند قبور الصالحين ، تشبها باليهود والنصارى ، وهذا محرم التحريم القطعي المؤكد ، بل إن كان يقصد باعتكافه هذا التقرب به لصاحب القبر فقد كفر وخلع ربة الإسلام من عنقه ، فلا حظ في الإسلام لمن اعتكف عند قبور الصالحين متقربا لهم بهذا الاعتكاف ، أو معتقدا أنهم يضيفون عليه البركة ، فصارت كثيرا من القبور كالتماثيل التي كان الكفار يعكفون عندها ، فترى الواحد من عباد القبور يبقى عندها الليالي ذوات العدد ، ومع بقائه عندها فإنه لا بد أن يصلي عندها ويدعو عندها ، فيحصل بذلك من المفاسد ما الله به عليم ، وقد نبه ابن القيم وغيره من أهل العلم رحمهم الله تعالى على المفاسد العظيمة التي حصلت بسبب الغلو في القبور فذكروا منها : — اعتيادها للصلاة

عندها ، ومنها : — تحري الدعاء عندها ، ويقولون : — من دعا عند قبر فلان استجيب له ، وقبر فلان هو الترياق المحرب ، ومنها : — ظنهم أن لها خصوصيات بأنفسها ، من دفع البلاء وجلب النعماء ، ويقولون : — إن البلاء يدفع عن البلد بقبور من فيها من الصالحين ، ولا ريب أن هذا مخالف للكتاب والسنة والإجماع ، ومنها : — الدخول في لعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم باتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها ، فإنه ما جر لذلك إلا الغلو فيهم ، ومنها : — اجتماعهم لزيارتها واختلاط الرجال بالنساء وما يقع في ضمن ذلك من النكرات والفواحش وتضييع الصلوات زعما منهم أن صاحب التربة تحملها عنهم ، ومنها : — كسوتها الكسوة النفيسة المنسوجة بالحرير والذهب والفضة ونحو ذلك ، ومنها : — جعل الخزائن والأموال ووقف الوقوف عليها ، ومنها : — إهداء الأموال ونذر النذور لها ولسدنتها العاكفين عندها لخدمتها ، والذين هم أصل كل كفر ، ومنها : — توظيف الخدم والسدنة لها ، ومنها : — الإقسام على الله تعالى بها ، وهو منكر من القول وزور ، ومنها : — أن كثيرا من زوارها إذا رأوا هذه القبور وما عليها من الزينة خر لها ساجدا من دون الله تعالى ، ومنها : — الركوع لها من دون الله تعالى عند الدخول عليها ، ومنها : — النذر لها من دون الله تعالى ، ومنها : — أن المدفون في القبر المعظم قد يكون أهيب وأخوف لهم من الله تعالى ، ومنها : — دعاؤهم من دون الله تعالى ، وهذا قد وقع فيه عامة من يرتاد هذه القبور ، ومنها : — التضرع عند مصارع الأموات والبكاء بالهيبه والخشوع لمن فيها أعظم مما يفعلونه مع الله تعالى في

المساجد ، ومنها :— تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله تعالى وهي المساجد ، فيعتقدون أن العبادة والعكوف فيها أفضل من العبادة والعكوف في المساجد ، ومنها :— إيذاء الصالحين بما يفعل عند قبورهم من الشرك ، ومنها :— محادة الله تعالى وانتشار الشرك وغرس الوثنية في القلوب ، ونبد التوحيد واطراح تعاليم الإسلام ، وإحياء معتقدات الجاهلية ، وبالجملة :— فإن تعظيم القبور التعظيم الزائد على الحد المشروع فيها هو أصل البلاء ، فالواجب على علماء الإسلام التأكيد على هذا الأمر والتحذير من فتنة القبور وتكرير ذلك في كل مناسبة ، وعلى الدعاة إلى الله تعالى في البلاد التي تعظم فيها القبور أن يبدؤوا بتصحيح العقيدة أولاً ، وقبل كل شيء وأن يحذروا من أن يشغلهم عن ذلك السياسات والكلام فيها والبرلمانات والدخول فيها ، بل عليهم أن يقبلوا على العامة ويشرحوا لهم أمر التوحيد والعقيدة ، ويكنفوا في تقرير ذلك الدروس والمحاضرات ، وينوعوا الطرح ، ويحرصوا على الدليل وكشف الشبهة، الله الله يا دعاة الإسلام بذلك الأمر ، فإنه في غاية الأهمية ، والله يحفظكم ويرعاكم ويسدد على طريق الحق والخير خطاكم ، وهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل ، والذي نريد إثباته هنا هو أن الاعتكاف عبادة لا يجوز صرفها لغير الله تعالى ، ولا تجوز إلا في المساجد لا في المشاهد ، والله المستعان .

وهذا بعض الكلام على هذه القاعدة العظيمة الفخمة ، والمقصود منها هو أن تعرف أن العبادة حق صرف محض لله تعالى لا تصرف لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لولي صالح ، فضلاً عن غيرهم ، وأن كل تعبد صرف

